حـــاول ...

محمد غزلان

حـــــــاول / رواية

محمد غزلان

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، اش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٣٠٠٩

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٠٣- ٢

حـــــــاول ...

رواية

محمد غزلان

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء إلى

وفاء وماهيتاب ومنار

وعمرو غزلان



سالم الدكرني

شاركنا جميعاً في قتلها .. شارك كل منا في قتلها بطريقه أو أخرى. هناك من تورط بطريقة مباشرة وهناك من لعب من بعيد وحتى من حاول ارتداء مسوح الحيادية كشفته الأيام. الكل شارك في الجريمة بقلبه أو بلسانه . نصيبي في الجريمة هو الأكبر وذنبي هو الأعظم. لم استطع أن اطرد هذه الأفكار من مخيلتي وأنا ارتدي ملابسي أمام المرآة.. أنظر إلى هيئتي، أتسرب إلى الماضي أو يأتيني بكل تفاصيله الدقيقة. يقولون إنها علامات مرض الشيخوخة الزهايمر .. تتذكر كل تفاصيل الماضي البعيد وتنسى الأمس القريب . تسألني زوجتي عن المكالمة التليفونية الأخيرة وسر إسراعي إلى ارتداء ملابسي والخروج في هذا التوقيت.

ارتديت ملابسي، ذكرتني زوجتي ألا أنسى البالطو، فالجو ممطر والرياح شديدة ، ارتديت البالطو ونظرت مرة أخرى إلى

نفسي في المرآة. هذا البالطو الأسود من آخر " صرفية " لي قبل ترك الخدمة، لا ينقصني سوى الكاب المقصب بخيوط الـــذهب لأعود مرة أخرى لواء في الخدمة . لواء شرطة سالم الدكرني . كنت أقدم نفسي بصوت جهوري وأخفض صوتي عندما اصل إلى كلمة بالمعاش . لن نأخذ زماننا وزمن غيرنا ، هكذا هـــي الأيام .

في ثوان كنت في الشارع بجوار سيارتي إلا أنني صرفت نظر عن ركوبها .. المسافة لا تحتاج سيارة وبدلاً من الخروج مـــن منيل الروضة إلى كوبري الملك الصالح ثم العـــروج جنوبـــا إلى مصر القديمة ، من الممكن أن أعبر كوبري المناسترلي مباشـــرة وأقطع طريق الكورنيش لأدخل منطقة الفرنساوي .

هناك يوجد مترل الأسرة وترقد الضحية .

الجو ممطر والطريق خال من المارة والـــسيارات . الـــساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً . هذا الطريق في الصباح ملـــيء بتلاميذ المدارس والسيارات من كل نوع. خلو الطريـــق ورذاذ المطر ورائحته جذباني للماضي . كنا نشم رائحة الفل والياسمين في هذا الطريق منذ سنوات . كانت البيوت الصغيرة بأسوارها الخضراء ونباتاتها تشيع روحاً من البهجة والتفاؤل . انتهى كل شيء. هذا الطريق بعينه كنت أمر به مراراً . كانت الفـــسحة

الوحيدة لنا عبور طريق الكورنيش ثم الكوبري إلى منيل الروضة. كانت الفسحة الوحيدة لشباب مصر القديمة أو الفرنساوي أو مصر عتيقة كما كان يسميها أبي .

ما من شاب من منطقتنا أحب ، الا وكان هذا طريقه . يعبر إلى البر الثاني بعيداً عن عيون الأهل والأقارب. كانت المنازل الصغيرة الأقرب إلى الفيلات تبث في ساعة العصاري رائحة الفل والياسمين وأغاني عبد الحليم حافظ أو أم كلثوم. كانت هناك فيلا لا نسمع منها سوى أغاني أم كلثوم ابتداء من الساعة الخامسة إلى نهاية جولتنا في الروضة.. كانت أيام .. الهموم كانت اقل والطموحات أكبر من أن تستوعبها قلوبنا الصغيرة إلا أنها كلها كانت قابلة للتحقيق .

من رغب أن يكون طبيباً ، أصبح طبيباً ومن تمنى أن يكون ضابطاً أصبح ضابطاً .

كان كل شيء كان قابلاً للتحقيق بشيء من الصبر والعمل. ضاع الصبر وانكمشت الطموحات ولم يعد العمل هو طريق النجاح. تشعبت الطرق وضاعت المعالم.

فرملة سيارة وصوت كلاكس صارخ أنقذني من ذكريات الماضي .. توقفت .. نهرني السائق ومر مسرعاً . عبرت طريق الكورنيش إلى مدخل مسجد سليمان الفرنساوي . معالم

المنطقة لم تتغير .. على اليمين مسجد سليمان باشا الفرنساوي وعلى اليسار صيدلية الشمس . مجموعة من الشباب تقف على ناصية الشارع، فزيارتي إلى مترلنا القديم قليلة ، منذ أن غادرته وأصبحت من ساكني منيل الروضة .

كل شئ كما هو.. من الشارع إلى الميدان ، دلفت يمينا إلى شارعنا .. شارع ساعي البحر ، لا أحد يعرف سببا لتسميته بهذا الاسم . الشارع مسدود في نهايته بمسجد ساعي البحر ، في منتصف الشارع بيتنا لم تمسه يد التغيير . شقة بالدور الأرضي ، منها حجرة ومطبخ وحمام صغيران أقتطعهما أبي منذ زمن وخصصها لزكي أخي .. زكي مسمار.. هو ليس أخا شقيقاً إلا أنه يناديني طوال عمره بأخي سالم وأخي حضرة الضابط سالم وأخي اللواء سالم وكنت لا أناديه إلا بأخي زكي وان كنت لا أحب لقب مسمار الذي ارتبط باسمه .

الشقة العلوية على مساحة المترل كله .. خمس حجرات . كنا أسرة كبيرة أب وأم وسته من الأخوة والأخوات .

سرت قشعريرة في جسدي عند الاقتراب من المترل .. دهانات النوافذ كما هي تشتكي من اعتداء الزمن . المنازل المجاورة اعتدت عليها أيادي الإهمال ، باستثناء عمارة ضخمة حديثة مواجهة تماماً لمترلنا . رغم تأخر الوقت إلا أن صوت

مذياع يحمله رذاذ المطر يخرج من منزلنا .. عبد الحليم حافظ يغني " حاول تفتكرني " في زمن لم يعد أحد " يفتكر " أو يتذكر أحدا . " بعدنا .. بعدنا ليه .. تعبنا .. قول من ايه ؟ " وقفت لاستمع إلى المقطع كاملاً بعد أن نسيت عبد الحليم وزمنه وأيامه .

أسباب البعاد كثيرة وأسباب التعب أكثر ومع أول خطوة داخل المنزل وإذ بأخي زكي يطوق عنقي أهلا باخويا اللواء .. أهلاً بأخويا اللواء .. احتضنته وكأنني مشتاق إلى حضنه .. قبلته وكأنني أبحث عن قبلة صادقة .. مسك بيدي وصعدنا السلم إلى الشقة العلوية حيث ترقد الضحية .

دق أخي زكي الباب بعنف وفتحت الباب له أختي الكبرى مديحه ، عندما رأتني انهمرت الدموع من عينيها واحتضنتني ، قبلت جبهتي وكتفي وأمسكت بذراعي لتدخلني الشقة . كل شيء فيها كما هو نظيف ومرتب وكأن الشقة لم تُهجر منذ سنوات .

صورة لي معلقة في الصالة . الصورة التقطت لي بعد تخرجي مباشرة . دبورة واحدة على كل كتف .. ملازم شرطة ثان .. كانت الدبورة حديث أهل الفرنساوي ومصر عتيقة كلها. أصرت أمي على شراء دبورتين من الذهب الخالص وكان زكي أخي يؤكد أنني غير كل الضباط ، فعلى اكتفاهم دبابير

من النحاس الأصفر اللامع .. أما أنا فالدبورة ذهب خـــالص عيار ٢٤ قيراط .

قبل أن أجلس دخلت مباشرة إلى الحجرة التي ترقـــد فيهـــا أختي الصغرى صفاء . انحنيت عليها أقبـــل جبهتـــها، فهـــي مستيقظة طوال الوقت، إلا أنها بلا حراك. لمعت عيناها ومرت ابتسامة خفيفة على شفتيها وعلى كرسي مجـــاور لـــسريرها جلست وجلست أمامي أختي مديحة وأخي زكي . صفاء ترقد رقدتها تلك منذ ثلاثة شهور بلا حركة . دخلت العديد مـــن المستشفيات إلا أن الكل أجمع " أن لا علاج ".

في النهاية تطوعت أختي مديحة أن تأخذها إلى بيتنا وتقـــوم على خدمتها ولا تتركها إلا للذهاب إلى منزلها المجاور في الحارة الخلفية . تطبخ بعض الطعام لزوجها وولديها ثم تعـــود إليهـــا مسرعة وفي أثناء غيابها يطل زكي على صفاء من وقت لاخر.. صفاء أختي الصغرى .. الضحية التي شاركنا كلنا في قتلـــها .. كانت أجمل فتيات الفرنساوي ومازالت رغم مرضها وتجاوزها الخمسين من العمر .. ابتسامة صافية كانت تملأ وجهها كلـــه وكانت الأقرب إلى قلب أبي وأمي .

قام زكي ليغلق المذياع ويخرس صوت عبد الحلـــيم إلا أن مديحة طلبت منه أن يترك الأغنية ، فهذا ليس بمذياع ولكنـــه مسجل ، تظل أغنية عبد الحليم تلك طوال اليوم ، كلما انتهت

أعادت تشغيلها مرة أخرى بناء على طلب صفاء . عيناها فقط تتحركان ويقول الأطباء إنها تسمع أيضا ، إلا أنها قد تكون فقدت النطق تماماً . حكت لي مديحة عن ظروفها المرضية، فأنا لم أزرها سوى مرة واحدة في المستشفى في بداية الأزمة وكنت أظن أن علاجها سهلٌ . نفس الأزمة مرت بها في شبابها ثم عادت كما كانت صافية النفس والوجه أو كانت تخفي آلامها عنا. زكي نزل إلى شقته ليحضر " عدة الشاي " .. أكواب وموقد صغير كان أبي يستخدمهم في حياته واعتبرهم زكي من ميراثه .

المشكلة أن صفاء ربما قد تكون تسمع كما يقول الأطباء وهذا ما يؤكده طلب عينيها في استمرار تشغيل أغنية عبد الحليم، والحديث أمامها قد يسبب لها المزيد من المشاكل . انتقلنا إلى الصالة ، زكي بمعدات صنع الشاي ومديحة خرجت من المطبخ ومعها بعض البطاطا المشوية. هذا الدفء الأسرى افتقدناه .

الأحاديث عن الحارة وناسها والذكريات لا ينتهي . طلبت مني مديحة أن أبيت هذه الليلة معهم ، فزوجتي لن تأكلها العفاريت ، لديها شابان كبيران وكل ما هو مطلوب أن اتصل بها تليفونياً لأخبرها . كنت في أشد الحاجة لتنسم رائحة الماضي والذكريات . أدرت قرص الهاتف . أخبرت زوجتي أنني

سأبيت ليلتي مع صفاء أختي . لم تمانع ونصحتني بأخذ حذري من البرد.

فرحة مديحة لا توصف بعد أن علمت أنني سأقضي الليلة معهم . استأذنت في الذهاب إلى بيتها لإخبار زوجها سلامة مجاهد بأنها ستقضي ليلتها في البيت الكبير معي وستحضر معها واحدة من جلاليب سلامة وقد تحضره معها لرؤيتي . زكي يتمنى أن يجتمع شمل الأسرة مرة أخرى ولو مرة في الأسبوع أو الشهر أو حتى السنة ويأتي معنا أخي شريف القاضي وأختي الدكتورة سامية وأختي زينب . أمنيته أن يأتوا مرة واحدة دون أزواجهم أو زوجاتهم ويعود البيت كما كان أيام الحاج محمد الذكري .

يترحم زكي دائما على أبي ولا يذكر أمي بالخير أو الشر ، فهي كانت لا تحبه منذ أن اصطحبه أبي معه لأول مرة وهو طفل ، مؤكداً أنه عثر عليه في الطريق ويتربى مع الأولاد إلى أن يظهر له أهل وظل معنا كأخ لنا طوال ما يزيد عن خمسين عاماً ولم يظهر له أهل وأصبحنا نحن أهله.

صفاء التي جئت من أجلها إلى الفرنساوي فتحت آبار الحزن والذكريات .. ذكريات الصبا والشباب. اكتشفت أن صمت صفاء وفقدانها للنطق ربما يبدو مرضياً ، أما صمتنا نحن الأصحاء فله أسباب أخرى لا نعلمها .. زكي ينتقل من

حديث إلى أخر ، من ذكرى إلى أخرى ، ذكرياته مع كل أخ فينا وكل أخت .. ذكرياته مع الوالد ومعي وذهابه معي إلى المدرسة الابتدائية وفشله في الحصول على الشهادة الابتدائية وقرار أبي أن يبقى بجانبه في المدبغة ليعمل بها . الآن هو يديرها وفي نهاية كل عام يصل كل منا مبلغ محترم حفظنا من سؤال اللئيم ولولا زكي هذا لتغيرت الكثير من الأمور إلى الأسوأ . عثور أبي على زكي وهو طفل وإحضاره إلى البيت وطلبه من أمي أن تعاملة كأحد أبنائها آثار شكوكها .

ظنت بالفعل انه ابنة من امرأة أخرى .

عادت مديحة ومعها بعض الجلاليب والأغطية ومعها زوجها سلامة مجاهد الذي عاتبني قبل احتضاني على غيابي الطويل وبعدي عنهم . أشار بيده إلى حجرة صفاء التي يخرج منها صوت عبد الحليم يصدح مغنياً " أنا اللي طول عمري بقول الحب عمره طويل .. من كتر ما كان الحب واخدنا وكل حلاوة الدنيا في ايدنا .. لا فكرنا زمان يعانسدنا .. ولا أيام تقدر تبعدنا " عاتبني بشدة وله الحق.

قد تكون الأيام الأولى في الشرطة وتنقلي من مدينة لأخرى ومن محافظة لأخرى سبباً للبعاد ، إلا أن بعد خروجي على المعاش كان من المفروض أن أقوم بترميم الجسور وإعادة العلاقات وإنعاش الود المفقود.

في الحقيقة أنا لم آت لذلك كله لكنني جئت بسبب أختي المريضة صفاء التي تركها زوجها وأبنها وابنتها لمصيرها . كل منهم يعيش حياته بطريقته . جئت إلى الفرنساوي الليلة لإحساسي بالجرم الذي ارتكبته في حق صفاء وبأنني واحد من الذين شاركوا في الجريمة .. الجريمة التي أدت في النهاية إلى رقدها بغير حراك ولا نطق . أريد أن أجلس أمامها واعترف لها واطلب منها الصفح والغفران ، إلا أن زكي وسلامة ومديحة حولوا الجلسة إلى شيء أخر افتقدته منذ سنوات وهو التواصل مع البشر ، التصالح مع التاريخ ، الاندماج مع الذكرى .

كل من في الحارة خرجوا منها و لم يعودوا إليها باستثناء مديحة وزوجها وزكي وصاحب العمارة الكبيرة التي حجبت الشمس والهواء عن منزلنا كما يقول زكي . كل من خرج من الحارة أو من شارع ساعي البحر لم يرض عن حياته ، أما المقيمون فيها ، فهم راضون تماماً عن حياتهم .

سألني سلامة مجاهد زوج أختي عن أحوالي بعد خروجي على المعاش وأحوال ولدي اللذين تخرجا من الجامعة . اكتشفت أنه يعلم كل شيء عنا وأنني حتى الآن لم اعثر لولديّ على عمل. تخرجا بعد إحالتي للمعاش وسدت الأبواب وهرب المعارف . تطوع زكي بأن له الكثير من المعارف ومن الممكن إلحاقهم بوظائف من الغد . أنا لم انزل من منزلي في منيل

الروضه لإجراء مثل هذه الأحاديث لكنني جئت من أجل صفاء. جئت أحاول أن اطهر نفسي ، جئت وأنا اشعر بحمل ثقيل يبدو انهم لا يشعرون به. إنهم يظنون أنهم قد برءوا أنفسهم عن طريق القيام على خدمتها بعد أن تخلى عنها الزوج والولد والبنت .

سلامة انصرف للمبيت مع أولاده في منزله وان كان أبدى رغبته في الجلوس معي حتى مطلع الفجر . نزل زكي إلى شقته وتركني مع مديحة التي بادرتني بالهجوم واتهمتني واتهمت نفسها والأسرة كلها بأنهم السبب في مصيبة صفاء وإذا كانت شفيت المرة السابقة ، فلن تشفى هذه المرة .

نعم .. شاركنا جميعاً في قتلها .. أنا وامي وأخوتي، بل الأسرة كلها . استثنت مديحة زوجها سلامة مجاهد من الاتهامات ، فهو كان غير راض عما يحدث وعندما حاول التدخل قاطعته أمي ، كما استثنت زكي من الموضوع برمته واتهمت كل أخ وكل أخت باسمها وكشفت دور كل منهم فيما أصاب صفاء إذا كان بين أزمتها الأولى وأزمتها الثانية ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً ، فقد شارك في الجريمة الثانية ابنها وائل وابنتها منى ، أما زوجها فقد فعل كل ما يمكن فعله. ذهب بها إلى أعلى الأطباء أجراً في مصر وأدخلها أغلى المستشفيات وكان يرغب في السفر معها للخارج إذا كان لها

هناك علاج ، إلا أن الأطباء اخبروه أن لا أمل في علاجها سواء في الداخل أو الخارج.

أطباء هذه الأيام لا يعلمون شيئاً عن الطب . الأمور كلها أصبحت تجارة وربنا دائماً يخيب ظنهم . تؤكد مديحة أن الأطباء أجمعوا على وفاة خالتي بعد ثلاثة شهور على الأكثر وظلت سبع سنوات بعد أن قالوا اطلبوا لها الرحمة. الأمل كبير في شفاء صفاء . حدثتني مديحة عن الحارة وسكانها، من انتقل لأحياء أخرى ومن انتقل إلى رحمة الله ومن سافر إلى الخارج ومن عاد . ذكرت أصدقائي القدامى في المرحلة الإعدادية والثانوية . بعضهم نسيته تماماً الا أن ذاكرة مديحة الحديدية أعادت شريط الذكريات . هناك من سافر .. تشير بإصبعها إلى حجرة صفاء وكأنها تشير إلى المسجل وعبد الحليم يردد " سافر من غير وداع وفات في قلبي جراحه ".

أصدقاء المدرسة الثانوية أصبحوا أطباء ومهندسين وقضاه . بعض من فشل في التعليم نجحوا كأصحاب محلات . يوسف المكوجي ورث المحل عن والده وعبده البقال في نزاع مع أشقائه لأنه وضع يده على المحل بعد وفاة أبيه . الحارة لن يتخرج منها أطباء أو مهندسون ،قضي الأمر ولن يخرج منها أحد بعد الآن. من أكمل تعليمه أصبح عاطلاً ومن وجد وظيفة سيظل عالة على أهله . لن يستطيع الزواج أو الانتقال إلى مكان اخر .

مرارة الحديث أشعر بها في حلقي وأرى أثارها على وجه مديحة وعلى نفسي . لديّ شابان في مقتبل العمر . أكملا دراستهما وعاطلان عن العمل .

مرض صفاء فرصة لجمع شمل الأسرة . تحـــاول مديحـــة أن تستكمل حديث زكي أخي في أن نجتمع ولو مرة واحـــدة في الأسبوع وأن نعيد التواصل وتدب الحركة في البيت المهجور . أتثاءب وأنظر في ساعتي . الساعة تقترب من الثالثة والأحاديث يبدو أنها لن تنتهي . مديحة نفسها تقاوم النـــوم ، ترغـــب في الجلوس معي أطول مدة ، فهي غير مصدقة أنني سأبيت ليلتي في منزلنا . طلبت منها إغلاق المذياع أو المسجل لأنام في حجـــرة أبي المجاورة لحجرة صفاء . فهمت أن صفاء تصحو وتنام على هذه الأغنية . من الممكن تخفيض الصوت بعض الشيئ.

تعودت بحكم الوظيفة أن أنام في أي مكان عندما يحـــل بي التعب إلا أن النوم خاصمني تلك الليلة . رائحة ابي تملأ المكان. أشعر بأنفاسه في أرجاء الحجرة ، بل أكاد اسمع سعاله وعبـــد الحليم لا ينقطع عن الغناء " خلي الشمس مع ابتسامتها تطلـــع وتنور دنيتنا .. ليه نقول إن الفراق مكتـــوب علينـــا والحيـــاة قدامنا.. ليه نسلم نفسنا لليأس ونقول انظلمنا " . أردد بـــين نفسي ليه وليه و لم أشعر الا بيد مديحة توقظني وضوء الـــصباح يتخلل النافذة .

شممت رائحة القهوة التي أعدها . نفس الطقوس التي كانت تمارسها أمي مع أبي .. يستيقظ .. يتوضأ .. يصلي الفجـــر .. يجد القهوة معدة، أما الإفطار فكان يتناوله مع عماله في المدبغة. طرقات خفيفة على باب الشقة قبل أن تصب مديحة القهـــوة . يدخل زكي أخي يحمل طبقاً به فول وكيسا تظهر الطعمية من فوهته وزجاجة مياه معدنية وخبزاً خرج لتوه من الفرن المجاور. ضحكت كما لم أضحك أبدا . أمسكت بزجاجة المياه وزكي يعلق ضاحكا " الباشا مش بيشرب مـــن الحنفيـــة " . طـــوال عمرى أشرب من مياه الحنفية ماذا جد هذا الصباح ؟!

وضعت مديحة طعميتين في نصف رغيف ودخلت حجـــرة صفاء وجلست أنا وزكي نتناول الإفطار إلى أن لحقـــت بنـــا مديحة . استحلفاني " بالغالي عندي " أن اتصل بأخوتي لنحدد موعداً للاجتماع الأسري . بمجرد أن انتـــهينا مـــن الإفطـــار اتصلت بأخوتي .. شريف .. الدكتورة ســـامية .. زينـــب .. مكالمتي الهاتفية المبكرة أصابت كلٌ منهم بـــالهلع . تليفونـــات الصباح في مصر بين أفراد الأسرة تنبئ بفجيعـــة . طمأنتـــهم جميعاً. أخبرتهم أنني أتحدث من بيت الوالد وقد قضيت ليلتي مع صفاء ومديحة وزكي ونرغب في أن تكون ليلة الخميس من كل أسبوع موعداً للقاء في المترل الكبير . رحبوا جميعاً بـــالفكرة . هلل زكي فرحاً وقبلني وشـــهقت مديحـــة شـــهقة أفـــزعتني واحتضنتني . هل وصل الشوق إلى هذا الحد وأصـــبح لقـــاء

الأخوة صعباً عسيراً إلى هذه الدرجة ؟ . موعدنا ليلة الخميس القادمة .

خلعت جلباب سلامة زوج أختي وارتديت ملابسي وودعتهم . أخبرت صفاء أنني سآتي إليها مرة كل أسبوع مع أخواتها وسأمر عليها خلال الأسبوع أكثر من مرة . الدموع انسابت من عينيها وابتسمت ابتسامتها الصافية . شعرت بأن جزءاً من الحمل النفسي سقط من فوق صدري ومن على اكتافي .. خرجت إلى الشارع .. اختلطت نسمات الصباح بحركة تلاميذ المدارس . بمجرد خروجي إلى الكورنيش شاهدت عشرات التلاميذ والتلميذات . المنطقة مكدسة بالمدارس الابتدائية والإعدادية . مدارس البنين والبنات. وقفت على ناصية صيدلية الشمس أرقب التلاميذ وكأنني استكشف المنطقة لأول مرة وسرت بهدوء لأقرأ اللافتات ..

مسجد الفرنساوي .. جدده حفيده محمد طلعت الفرنساوي عام ١٩٥٥ ميلادية ١٣٧٤ هجرية . مدرسة محمد جلال الإعدادية للبنين . كان اسمها مدرسة الشهيد محمد جلال.

من الذي حذف صفة الشهيد ولماذا ؟ مدرسة عمرو بن العاص الإعدادية للبنات . المدرسة التي ذهبت إليها جميع أخواتي البنات . لن أقطع الكورنيش ولن أعبر كوبري

المناسترلي . سأسير بنفس الخطوة المنتظمة إلى كوبري الملك الصالح . أرغب في استنشاق المزيد من هواء الصباح وأرغب في رؤية المزيد من التلاميذ والناس . مدرسة الفسطاط الثانوية التي حصلت منها على شهادتي . الباب مغلق بالجنازير وبعض الطلبة أمامه يدخنون السجائر .. نفس ما كنا نفعله عندما كانوا يغلقون الباب عقاباً للطلبه المتأخرين .

هؤلاء الطلبة هل يتخرج منهم الطبيب والضابط والقاضي والمهندس ؟ مديحة أختي أكدت أن الحواري لن يتخرج منها أحد ولن يخرج منها أحد . الحواري أغلقت بالفعل على نفسها . البطالة مرتفعة والإجرام زاد. الاحترام انعدم والحب ضاع . لا أظن أن الحال سيستمر على ما هو عليه . الأيام تدور دورة كاملة .. لا تتوقف . قطعت المسافة من مترل الأسرة إلى مترلي فيما يقرب من ساعة .

أحسست أن عضلات ساقي تؤلمني وفقرات عمودي الفقري ليست على ما يرام. شعرت بالفعل ان العمر جرى وما تبقى منه هو القليل .

تتقافز أمامي صورة صفاء في رقدها ويؤنبني ضميري لأنني لم استطع حمايتها بل شاركت في إيذائها مرتين . قبل أن ادير المفتاح في باب الشقة فتحت لي زوجتي الباب. سألتها عن الولدين .. مازالا نائمين .. سألتني عن ليلتي وكيف كانت

وهل تعد لي طعام الإفطار . دخلت حجرتي لأستكمل نومي وصورة صفاء التي شاركنا في قتلها

لا تفارقني !!

يوم ثقيل وصداع قاتل .. زيارة الفرنساوي أعادت لي بعض الذكريات ، إلا أن لا مكان لها. المقارنة بين الماضي والحاضر مزعجة مؤلمة مخيفة . زكي أخي هو الوحيد القادر على دمج الماضي بالحاضر دون انزعاج أو ألم أو حتى خوف . لا أتذكر اليوم الأول الذي رأيته فيه ولكن زاد أفراد المترل فرداً جديداً ذات مساء عندما أحضره أبي ونام معي على سريري . وجدته بجانبي صباحاً .

لم اعرف الحقيقة إلا عند ذهابي إلى المدرسة في اليوم الأول. كان معي زكي أخي واكتشفت أن اسمه مختلف عني ، فكيف يكون أخي .. إسمي سالم محمد على الدكرني واسمه زكي أبو السعود الجارحي لم اشغل نفسي طويلاً ونسيت الأمر . تجدد الوضع عندما أحضرنا الصور وبدأ المدرسون يكتبون لنا استمارة الشهادة الابتدائية.

قررت بعد عودتي أن أسأل أبي . كانت إجابته قاطعة .. لا تشغل نفسك بالأسماء . زكي أخوك وخلاص وعندما رسب في امتحان الابتدائية ، سحبه أبي للعمل معه في المدبغة فهو

يشعر أن الله أرسله له ليكون ساعده الأيمن . لم نعرف القصة الا بعدها بسنوات . كنا نسكن في شقه ضيقة بالإيجار في منطقة خارطه ابو السعود وكانت قريبة من مدبغة أبي خلف سور مجرى العيون وهي المنطقة المحصورة بامتداد السور الفاصل بين مدبح السيدة زينب حتى عين الصيرة . في المرحلة الإعدادية كنت أخرج من المدرسة مباشرة إلى ابي في المدابغ أساعد زكي بعض الوقت .

استعدل المسامير التي تُستخدم في شد الجلود وألعب معه ثم نعود للمترل سوياً قبل الغروب ونترك والدنا في المدبغة ليأتي بعد صلاة العشاء .

طلب أبي أن ننتظره . غادر المدبغة معنا وأوصى العمال بالتشطيب مبكراً . سرنا بجانبه . زكي على يمينه وأنسا على يساره . لم يذهب إلى المترل مباشرة بل اتجه إلى سيدي أبو السعود . أدرك زكي أن هذا ليس طريق المترل ، فقد كنا انتقلنا إلى مترلنا الجديد الذي اشتراه أبي في الفرنساوي . كان زكي يتأخر بعض الشيء اثناء السير لينظر إليّ من خلف ظهر أبي ، ظناً منه بأنني وشيت به . وأننا كنا نأتي لمقام أبو السعود لنطالع النساء اللاتي يتباركن به . كان زكي يأتي بي لهذا المكان. نجلس على ربوة عالية ننظر إلى النساء اللاتي يغتسلن من حنفيات مياه بجانب المقام ويظهرن سيقاهن . الخوف كان

بادياً على وجه زكي وأنا لا أعلم ما يدور فى رأس أبي ، خاصة عندما وقف بنا على نفس الربوة ونظر إلى النساء أسفل المكان.

هنا مقام الشيخ ابو السعود الجارحي وأشار بيده . نظر إليّ زكي بطريقة جعلتني أشفق عليه . يخشى من عقاب أبي لـه . استكمل الحاج محمد الدكرني حديثه . النساء اللاتي يحلمن بمولود .. ولد أو بنت يأتين هذا المكان . الشيخ "سره باتع" بعضهن يحملن بعد أول زيارة وأخريات يقضين العمر في زيارة الضريح والتوضؤ من ماءه دون ان يأتيهن ولد أو بنت . هنا وجدت زكي .. يبكي ولا يعرف الا اسمه . لا يعرف اسم والده او اسم والدته، كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات تقريبا. أحضرته معي إلى المترل إلى أن يظهر له أهل . عند بلوغه سن المدرسة استخرجت له شهادة ميلاد .

ساقط قيد باسم زكي أبو السعود الجارحي وتنفس زكي الصعداء . لم أشِ به ولم أبلغ أبي بزيارتنا اليومية إلى الضريح وسحبنا الحاج محمد الدكرني إلى المترل . عرفت سر اسم زكي، إلا أنه ظل أخي وظلت أمي تشكك فيه حتى بعد وفاة والدي عندما علمت أن أبي أوصى له بثمن المدبغة وثمن المترل قبل وفاته . كانت تؤكد أن زكي أخا لنا من امرأة أخرى شاء أبي أن يخفيها أو أن الموت أخفاها.

زكي كان الوحيد الذي يذهب إلى صفاء يومياً أثناء وجودها في المستشفى . عندما جاء بها زوجها إلى مترل الأسرة

بعد تطوع مديحة أختي بالسهر على خدمتها ، رفض زكي أن يتقبل منه مليماً واحداً . حاول زوجها ان يبرئ ذمته بإعطـاء زكي عشرين ألف جنيها ، إلا أنه رفض تماماً قبـول المبلـغ. اشترى لها من ماله مرتبة هوائية غالية وسرير طبياً . كان يطل عليها يومياً . يصعد من شقته الصغيرة إلى شقتنا وهو الوحيـد الذي لم تتزعزع ثقته في شفائها.

وهو صغير كان يشتري لي يومياً جريـدة بقـرش صـاغ ويشتري لي كتباً جديدة أو قديمة لمعرفته بحبي للقـراءة ورغـم معرفته بحقيقة وضعه وخشونة أمي في التعامـل معـه ، إلا أن ذلك لم يؤثر في حبه لنا . كنا أسرته وكان أخا لنا . يقر بأنـه ساعد كلاً منا، حتى أنه يفخر بأنه السبب في دخـولي كليـة الشرطة .

يوم ثقيل وصراع قاتل .. أين كان ذلك كله ؟ ينفي زكي أن يكون له دور في جريمة صفاء ، فهو الذي طلب من أبي قبل وفاته أن يوافق على خطوبتها من محسن جارنا الذي كانـت تحبه ويحبها. أمي كانت ترفض هذه الزيجة وتـرفض أن تظـل صفاء اجمل بناتها في الفرنساوي . أخوها ضابط والثاني قـاض وأختها طبيبة .. لا يمكن ان تتزوج من هو دون اخوتها ولابـد أن تنتقل مثلهم إلى الأحياء الراقية أو على الأقل تعـبر النيـل وتعيش في المنيل . كانت صدمة صفاء الأولى وكنا شـركاء في الجريمة.

نجحت أمي في إفشال الزيجة بكل الطرق ، خاصة بعد وفاة أبي . خرج محسن من الفرنساوي .. غـاب سـنوات وعـاد والمنزل الذي كانت أمي ترفض أن تسكن فيه صفاء تحـول إلى عمارة ضخمة يملكها محسن ويحجب الشمس والهواء عن منزلنا كما يقول أخي زكي .

زيارة واحدة فتحت كل نوافذ الماضي وأغلقـت طـرق المستقبل . ماذا يحدث لي لو ذهبت أسبوعيا إلى الفرنـساوي واجتمع شمل الأسرة وحكت لي مديحة وزكي عما غاب عـني طوال هذه السنوات .

لو منّ الله على صفاء بالشفاء لتخلصت مـن جـزء مـن المتاعب الجديدة التي ظهرت في حياتي . هناك من يسعد بماضية وهناك من يشقى به ورغم سعادتي بقضاء ليلة في منزل الأسرة، إلا أن ظروفي الصحية قد لا تحتمل الاسـتمرار . ضـغط دم وانسداد جزئي بالشريان التاجي لا يعلم به أحـد . الجلـوس معهم أسعدني قدر ما تؤلمني رقدة صفاء . يؤلمني جحود ابنـها وابنتها . يزعجني انصراف زوجها عنها وظنه أن المال الـذي حاول تقديمه لزكي أخي يبرأ ذمته . الخميس القادم موعدنا و لم أتخلص بعد من آلام الخميس الماضي .

قبل الموعد وقبل غروب الشمس كنـت في الفرنـساوي . بعض كبار السن تعرفوا علي وقدموا لتحـيتي . تجولـت في

الحواري القريبة من ساعي البحر . كل الحواري تقريبا تحـــت مسمى اسم واحد سليمان باشا الفرنساوي .حـــارة ســـليمان الفرنساوي .. درب سليمان الفرنساوي .. زقـــاق ســـليمان الفرنساوي . أنهيت جولتي وصـــعدت إلى الـــشقة . الكـــل متواجد.. سامية .. الدكتورة سامية وزكي ومديحة وزوجهـــا سلامة مجاهد وقبل أن ادخل حجرة صفاء ، أخبرتني مديحة أن اخي شريف اتصل واعتذر عن عدم الحضور لوجوده خـــارج القاهرة ، إلا أنه سيكون متواجداً الأسبوع القادم .

زكي أعد عشاء وأحضر مياه معدنية وزجاجات مشروبات غازية بأحجام مختلفة . طيبته وحنانه تذكرني بأبي ويبـــدو أن أمي كانت صادقة . غريزة الأنثى جعلتها تتشكك فيه وسلوكه الأبوي ومداعبته لنا بنفس طريقه أبي تؤكد ظنونها. الفرق بينه وبين أبي في الملبس فقط . كان أبي يرتدي دوما جلباباً عليـــه بالطو ، أما زكي فيلبس الملابس الإفرنجية غالية الثمن . جاكت من الجلد وحذاء من نفس اللون . شعره أسود لامع يبدو انـــه بدأ في صباغته. جلسنا في الصالة الكبيرة . قام زكـــي بـــدفع وتحريك سرير صفاء لتكون بجوارنا ونقل المسجل إلى منـــضدة صغيرة حتى يظل عبد الحليم حافظ في حضنها .

أجواء الجلسة تختلف عن الأسبوع الماضي ، ضغط زكـــي على زر المسجل لينطلق عبد الحليم " حبيبي والله لسه حبيبي .. عمري ما أنسى حبيبي .. ابقى افتكـــرني حـــاول .. حـــاول

تفتكرني .. ابقى افتكرني .. ولو مريت في طريق مشينا مرة فيه او عديت في مكان كان لينا ذكرى فيه .. ابقى افتكرني " كان زكي يغني معه وهجم علي ليحتضنني وسط ضحكات مديحة وزوجها وصمت الدكتورة سامية وكأنها غريبة عنا . كانت تنظر كل فترة في ساعة يدها وكأنها تحث عقارب الساعة على السير بسرعة . زكي كان ومازال بالفعل أخي وحبيبي رغم بعدنا . لم يشعر مرة بنقص لفشله في التعليم، يحبني حبا خالصا أستشعره في كل نظرة له وفي كل إيماءة . كم طريق بالفعل مشيته معه وكم مكان كان لنا فيه ذكريات عديدة.

أثناء دراستي في الكلية . إجازتي كانت خميس وجمعه . يصر على أن يمشي معي إلى محطة مار جرجس لاستقل القطار أو محطة الملك الصالح . كان يوجهني، ستركب هذه المرة من تلك المحطة . يريد أن يراه كل الناس بجانب أخيه سالم الطالب في كلية الشرطة بزيه العسكري. عندما دخلت الكلية كان يؤكد أنها حرمتني من رؤية نساء سيدنا ابو السعود الجارحي خاصة يوم الثلاثاء وهو اليوم الذي تكتظ فيه النساء حول الضريح وخارجه .. أجواء هذه الجلسة مختلفة أعادتني إلى الوراء ودفعتني إلى الماضي بلا آلام .

كلام مديحة حول أختي صفاء بأنها تسمع يبدو حقيقيا . تتابع أحاديثنا بعيونها وتبتسم ابتسامة خفيفة عندما يثير الموقف الابتسام . زكي يحكي عن كيفية التحاقي بكلية الشرطة

ويضيف بأن تخرجي أيضا كان نكبه على الأسـرة . كنـت أرغب في الالتحاق بكلية الآداب أو الحقوق ، إلا أن الحـاج محمد الدكرني أصر على تقديم أوراقي إلى كلية الـشرطة دون إبداء الأسباب . السبب الرئيسي الذي كنا لا نعلمه أن معاون مباحث مصر القديمة تعامل مع أبي بطريقة غير لائقـة ، بـل جارحة وهنا أيقن أبي أنه ضابط صغير و لم يتـسرب بالطريقـة اللائقة . أصر على دخولي كلية الشرطة لأصبح ضابطاً محترماً . يحترم الناس ولا يتعالى عليهم.

زكي يحكي أنه أدخلني كلية الشرطة بربع جنيـه رشـوة وسجارتين حشيش . تضحك مديحـة وزوجهـا وتمـتعض الدكتورة سامية . لقد تقدمت بأوراقي إلى كلية الشرطة صيف عام ١٩٦٥. اجتزت الاختبارات وجاء مخبر من قسم شـرطة مصر القديمة لإجراء التحريات عني . قابله زكي. أخبره أنـي ابن الحاج محمد الدكرني صاحب مدبغـة في مجـرى العيـون وأخبره بأسماء إخوتي جميعاً وأعطاه ربـع جنيـه وسـجارتين ملغمتين بالحشيش ، زكي يؤكد أنه أعدهما خصيـصا لهـذا المخبر، فقد كان يحمل معه دائماً مسماراً من الصلب يفرغ به السجائر ويدس الحشيش مكان التبغ . كان مسمار زكي معـه دائماً يحتفظ به في سلسلة مفاتيحه رغم انه لا يدخن الحـشيش الا أنه يحمل هذا المسمار صدقة . كل من يطلبه يعـيره إيـاه والتصق باسمه وأصبح اسمه زكي مسمار .. وهو الشئ الوحيد الذي أكرهه فيه.

ما لم يفهمه زكي انه في زماننا كل من يرغب في أن يكون ضابطا يصبح ضابطا ومن رغب في أن يكون قاضياً نجــح في تحقيق رغبته . كان الزمن مختلفاً والفساد ان وُجد يسير علــى استحياء ، لم نسمع عن رشاوى الآلاف والملايين ، حتى قضايا الاختلاس كانت لا تزيد عن المئات ، كانت الامور أبسط من كل التعقيدات . مخبر جاء ليتحري عن طالب قدم أوراقــه إلى كلية البوليس .

قابله شخص ساعده في إكمــال الأوراق الروتينيــة الــتي يحملها. سواء أعطاه ربع جنيه أو لم يعطــه كانــت الأوراق ستسير في مجراها الطبيعي . لم يكن هناك من هو على استعداد ان يقدم الآلاف لإلحاق ابنه بكلية أو وظيفة . كــان النــاس سواسية وكانت الظروف مختلفة . سألت زكي عن المسمار . أعطاه هدية لجار له قبل سفره للحج العام قبل الماضي. تخلــص من أداة الجريمة إلا إنها مازالت عالقة باسمه .

الأحاديث كلها تدور بعيداً عن مشاكل صــفاء الــصحية والنفسية وتتابعنا بعينها وكلها سعادة .. سلامة مجاهــد زوج أختي يتحدث عن الجيرة وكيف كان الناس يحبــون بعــضهم البعض وكيف أجل زفافه على أختي مديحة شــهرين كــاملين مشاركة لأحزان أسرة من الجيران توفى عائلها وعنــدما فكــر والده في إقامة سرادق للفرح في الحارة استأذن الجيران . مديحة تتحدث عن فرحها وكأنه أقيم في فنــدق هيلتــون وتتأهــب

الدكتورة سامية للمغادرة معتذرة عن عدم تناول طعام العشاء معنا فهي تريد ان تلحق بزوجها وابنائها . تطبع قبلتين على خدي صفاء وتحمل حقيبتها وتغادر الشقة . أجلس انا وزكي وسلامة على المائدة وتنقل مديحة أختها إلى حجرتها دافعة السرير أمامها . ويسأل زكي بحسرة إلى متى سيستمر وضعها هكذا ؟ سؤال لا أملك إجابة له إلا أنني أعلم حجم جرمي في حقها .

" بعدنا .. بعدنا ليه " ضبطتني زوجتي وانا أدندن بمقطع هذه الأغنية ، ضحكت ونادراً ما تضحك فقد طبعت الأيام جزءاً من صرامتي على سلوكها ، كنت أتندر حول جديتها وأداعبها بأنها ضابط ملتزم إلا أنها سألتني عن سبب ترديد أغنية عبد الحليم وهل زيارتي إلى منطقتي القديمة ذكرتني بحب قديم كان قد ضاع وعثرت عليه فجأة ؟ سألتها إذا كان لدينا شرائط مسجلة في المترل لعبد الحليم ، تخلت عن وقارها وشهقت مستعجبه من حالي . جلست بجانبي .. نادت على الأولاد سألتهم إذ كان لديهم شرائط أغاني حب لعبد الحليم.. نفى الولدان وجود شرائط وانصرفا بخجل من أحاديث امهما عن الحب الجديد الذي يعيشه والدهما .

مثل الضباط انتقلت زوجتي إلى حالة الجد .. حاولت الاطمئنان عن حالة صفاء واخوتي وهل حضروا جميعاً أو ان هناك من تخلف منهم .. سألت عن شريف أخي الذي يسكن بجوارنا في الروضة ولا يزورنا إلا قليلاً ولدقائق محدودة ..

اعتذر شريف لوجوده خارج القاهرة .. كانت كأنها تعلم أن شريف لم يأت . سألت عن مديحة وزوجها وابنائها وسالتني بغته .. هل عبد الحليم يطربك بالفعل أو أنسك تسأل عن أسباب البعاد " وبعدنا ليه " ولماذا ابتعد الناس والأهل عن بعضهم . عادت للحديث عن صفاء وجزمت أن شفاءها في طلاقها من زوجها .

.. ضغطت زوجتي على جرح . وضع صفاء الأسري هو السبب في مشاكلها الصحية والنفسية . فهي تزوجت رغماً عنها بعد فشل تجربتها الأولى وضغط أمي عليها وعلى خطيبها الذي كان يجمع الحب بينهما . لم يكن الحب في منطقتنا القديمة حراماً . كنا نعلم أن فلان يحب فلانه ويطرق الأبواب وتنتهي القصة بالزواج . الحب كان له طقوس لا تتجاوز النظرات من النوافذ أو نظرات يتم تبادلها في الشوارع والحواري . لا يحدث تجاوز هذه الخطوط . الجريء بعض الشيء يكتب رسائل للطرف الثاني والأكثر جرأة يتواعد ويتقابل ولا يتجاوز الأمر السير جنبا إلى جنب . كان كوبري المانسترلي هو المكان المفضل لأغلب الأحبة في الفرنساوي وكان الطريق هو عبوره إلى الروضة .. الجلوس على الكورنيش بعض الوقت ثم عودة الأحبة فرادى إلى مدخل الفرنساوي .

لم يكن الحب عيباً ، سلامة مجاهد أحب أختي مديحة ، تقدم والده الحاج مجاهد ليخطبها من أبي . لم يكن هناك شروطاً . الأوضاع متقاربة مجاهد الأب جاء مثل أبي من الصعيد ، عملا

سوياً في مدبغة صبياناً . ساعدهما صاحب المدبغة عندما كبرا ، استأجر لهما مكاناً بجوار مدبغته . عملاً في بداية الأمر في الجلود " المعيوبة " التي ترفضها المدابغ الكبرى .. كبرا .. انفصلا عن بعضهما .. كل منهما أصبح له مدبغة صغيرة وقطعة أرض كبيرة أمام المدبغة ينشران فيها الجلود . ظلت الصداقة بينهما . تزوجا من منطقة الجيارة، تزوج أبي قبل عم مجاهد .. انتقلا سوياً من خارطة ابو السعود إلى الفرنساوي .. اشترى كل منهما مترلاً من طابق واحد .. مترل أبي في منتصف شارع ساعي البحر ومترل عم مجاهد في نهايته ملاصق للمسجد وله مدخل من الحارة الخلفية .

عندما تقدم سلامة لخطبة أختي عرض أبي وعمي مجاهد أن يبنيا شقة لهما أعلى المترل . أصر أبي أن تكون الشقة في مترلنا وأصر عم مجاهد أن يسكنا في مترله . لم يختلفا إلا على شيء واحد . أبي يريد أن يتوظف سلامة بعد حصوله على دبلوم الصنايع وأبوه يرغب في أن يعمل معه في المدبغة ، فهو الولد الوحيد . الأمور سهلة ميسرة . حصل مجاهد على وظيفة في شركة النصر للمطروقات بحلوان وكان يمر على والده في المدبغة بعد انتهاء عمله . قرئت الفاتحة واتفقا على المهر . مائة جنيه .. سافر سلامة مع الشباب الذين سافروا إلى أسوان للعمل في مشروعات بناء السد العالي .. قضى عاماً .. ادخر المهر ودفعه وتأجل الزفاف لما يقرب من شهرين عندما توفى جار لنا .

الظروف متقاربة .. لم يكن في أسرتنا ضابط أو قاضـــي أو طبيب و لم يكن لدى سلامة سوى أسرته التي نعرفهـــا .. أب وأم وثلاث بنات وأقيم الفرح في شــارع ســاعي البحـــر .. سرداق أغلق الشارع وتجار جلود ودباغون وتجار أحذية مـــن جميع أنحاء مصر .. فرح حتى الفجر ..أحياه مطربـــا العـــصر حينذاك . محمد طه وأبو دراع أشهر المطـــربين الـــشعبيين في منتصف الستينات . لن أتحدث عن زجاجات البيرة التي شُربت ولا عن الحشيش الذي دُخن لكن هالني كمية النقـــوط الـــتي دُفعت والتي يقذف بها التجار على أبو دراع أو محمـــد طـــه ويجمعها زكي أخي.

يكتب في كراسة صغيرة أسماء الذين قدموا النقوط والمبلـــغ المدفوع أمام كل اسم . في صباح اليوم التالي اقتسم أبي وعـــم مجاهد النقوط ما لا يقل عن ألف جنيه .. كانت الأمور بسيطة والأوضاع خالية من التعقيد، والكل يتفهم الظـــروف حـــتى الشرطة في ذلك الحين .. عندما هبط بوكس الـــشرطة علـــى ناصية الشارع وبه معاون المباحث خرج أبي وعم مجاهد مـــن السرداق لاستقبالهم .. فرح يا باشا وعقبـــال عنـــدكم .. لم يمارس أي نوع من الابتزاز .. انـــصرفوا دون أن نقـــدم لهـــم رشاوي .

كانت أمي أكثر الناس فرحاً بزواج ابنتها مديحة وإقامتـــها في نفس الشارع . النفوس راضية والطموحـــات قليلـــة وإن كانت أمي هي الدافع والمحرك لكل القفـــزات الأســـرية . أب يعمل ويكد والأبناء يجتهدون في دراستهم ويتقدمون . كانت الطامة الكبرى .. أنا .. عندما التحقت بكلية الشرطة وبعدها بعامين التحقت سامية بكلية الطب وبعدها بعام دخل شـــريف كلية الحقوق . انقلب حال أمي وتحولت من أم ســـالم إلى ام الضابط ، كل من في الشارع والحواري المجاورة يناديها باللقب الجديد .. أحوالنا تتقدم .. تجارة أبي وصناعته تلقى رواجـــاً .. عمليات تصدير جلود ضخمة إلى روسيا .

ركب أصحاب المدابغ سيارات ملاكي وانتقل بعضهم من مصر عتيقة والفرنساوي إلى الروضه ومنيل الروضة . عـــبروا النهر فقط وطالبت أمي بالانتقال إلى الروضة إلا أن أبي أصـــر على عدم ترك منزل يمتلكه والانتقال للإقامة في شقة بالإيجار في المنيل . تحت ضغوطها وإصرارها .. استأجر لنا شقة في الروضة كان لا يبيت فيها إلا قليلاً وظل متمسكاً بمنزله .

بمجرد تخرجي انتقلت للإقامة في المنيل وتركنا مديحة وحدها في الفرنساوي ، تسلمت خدمتي في محافظة كفر الشيخ وانتقل ابي إلى رحمة الله وفقدت حياتنا بساطتها . اصبح كل منـــا في وضع جديد وأعادت أمي ترتيب أوراقنا بطريقتها . جن جنونها

عندما علمت بوصية أبي لزكي أخي والذي حمل على عاتقــة إدارة المدبغة وتشغيلها . كان يأتي كل فترة إلى شــقة المنيــل لاطلاعي أو اطلاع أخي شريف على حــسابات المدبغــة، لم يطلب أجراً لإدارته ، اكتفى بنصيبه الذي أوصــى بــه أبي . خصص صبياً يعمل لديه بتلبية جميع احتياجات المــترل رغــم كراهية أمي الشديدة له . أصبح زكي همزة الوصل الرئيسية بين الأشقاء ، الا أنه لم يفلح في إتمام زواج صــفاء مــن محــسن جارنا.. أمي ترغب في قطع الخيوط مع الفرنــساوي ومــصر عتيقة .

نجحت دون ان تشعر بأنها تحطم سعادة ابنتها . لم يتــدخل أحد منا لتصحيح الوضع وانهارت صفاء . ظلت ما يقرب من عام لا تنطق ولا تتحرك . كان من المفروض أن أتدخل لكنني تشاغلت عنهم بسبب زواجي من أم أولادي ابنــة الأســتاذ الجامعي صاحب العقار الذي استأجرنا فيه الشقة وتنقلي مــن محافظة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى . لقد شاركنا جميعــا في قتل صفاء باستثناء مديحة التي كانت تدافع عن حق صفاء في الارتباط بمن تحب وأن تعيش في المكان الذي ترغب فيه، عكس أمي التي كانت ترى أن مصلحة صفاء في ترك محسن والبحث لها عن عريس يناسب وضعنا الجديد. أبي كان يصف رأس أمي بأنها حديد، لا تلين. وأنا لا أســتطيع اتهامهــا بالتــسلط أو الجبروت. كانت رحمها الله لها رأي في كل شيء. صــائب في كثير من الأحيان .

زكي مسمار

أنا لم أشارك في هذه الجريمة. أنا زكي مسمار أو زكي أبو السعود الجارحي أو زكي الدكرني ليس لي علاقة بمشكلة أختي صفاء. أنا لا يهمني إذ كنت أخاهم، شقيقهم بالفعل أو من امرأة أخرى أو أن الحاج محمد الدكرني عثر علي بجوار ضريح الشيخ أبو السعود. يكفيني أنني أخوهم بالتربية الحقيقية على يد الحاج محمد الدكرني. أنا لا أتذكر إلا ما سمعته و لم أعرف غيرهم. وجدت نفسي بين أختي مديحة وأخي سالم وأخي شريف وأختي الدكتورة سامية وأختي زينب ثم جاءت صفاء. نمت في سرير واحد مع سالم حتى دخل كلية الشرطة وعندما اشترت أمه له سريراً صغيراً ووضعته في حجرتنا حتى ينام عليه وحده، كان يفضل أن ينام معي على نفس السرير.

عندما مات الحاج محمد الدكرني واكتشفوا الوصية، ضربت أمهم على صدرها، فكرت في الهروب وترك المترل والمدبغة والبحث عن مكان أخر أعيش فيه، إلا أن إخوتي رفضوا

وأصروا على بقائي معهم. ما قاله سالم وشريف مازلت أتذكره وأحمله كجميل لهما "إن لم تكن أخانا بالـــدم فأنـــت أخونـــا بالتربية والعشرة" ولأول ولأخر مرة يتشاجرون مـــع أمهـــم بسببي. أحبهم وما زلت رغم ابتعاد بعضهم وانشغالهم وعجرفة شريف وتعاليه بعد أن دخل النيابة وأصبح قاضياً. صفاء كانت أختي الصغيرة المدللة. أدخر من مصروفي اليومي وأشتري لهـــا بعض الحلوى. حلوى زمان.. نوجة وعسلية وغزل البنـــات. كنت أشتري لها شرائط ملونة لتضفير شعرها. أنا لم أشـــارك أبداً في تدمير صفاء. حاولت بكل ما في وســـعي إنقاذهـــا و لم أفلح. أعترف أنني فشلت إلا أنني لم أشارك في الجريمة.

أتذكر جيداً يوم ظهور نتيجة الابتدائية. اصطحبنا الحـــاج محمد الذكري إلى المدرسة. النـــاجحون معلقـــة أسمـــاؤهم في كشوف على جدران باب المدرسة من الداخل والراســـبون في كشوف أخرى. نجح سالم ورسبت. لم ينفعل الحـــاج محمـــد الذكري و لم يغضب. عاد بنا إلى المترل وبصحبتنا عبده بن سيد عبد النعيم البقال. سلم سالم لأمه وأخبرها بنجاحـــه وعنـــدما سألته عني لم يرغب في أن يقول أني راسب. أمسكني من يدي وشد عليها وقال زكي من اليوم معي في المدبغة و ذهبنـــا إلى سيد عبد النعيم، سلمه إبنه و تحدث معه طويلاً .

سرت بجانبه مكسوراً ذليلاً، لم أقدر على رفع رأسي. عندما وصلت إلى المدبغة طلب مني أن أعد له الشيشة وأشـــعل لـــه

الفحم. بدأ الحديث حول الدنيا والعمل والتعليم والنجاح والرسوب. سألني لو كل الأولاد تعلموا ونجحوا في المدارس ماذا نفعل في المدابغ؟ هل نغلقها؟ ناس لازم تتعلم في المدارس وناس تتعلم من الدنيا والشغل. تعلم أخوتي جميعاً وتعلمت أنا أكثر منهم. أصبح لكل منهم أسرة وأولاد وأنا لم أتزوج، تزوجت المدبغة والجلود والفلوس.

عندما سألني أخي سالم لماذا لا أبحث عن بنت حلال وأتزوجها، ابتسمت. رفضت الفكرة. هل أتزوج وأنجب أبناء يفقدون الطريق مثلي؟ الدنيا لم يعد فيها ناس من أمثال الحاج محمد الذكرني. كنت أفرح عندما يتزوج أحد من أخوتي وكنت أنظر إلى أبنائهم على أنهم أبنائي رغم ذلك يتهمنا سالم بأننا شركاء في الجريمة. سالم أخي بحكم عمله في الشرطة يتهم كل من يقابله حتى وإن كان بريئاً إلى أن يعثر على المجرم الحقيقي.

صفاء قتلتها أمها. رحلت عنا وتركت لنا المشاكل. هي في دار الحق ونحن في دار الباطل إلا أنها كانت تكره الحق. تبعد عنه أميالاً وتسير في طريق الباطل والعوج سنيناً وأياماً. كانت صفاء مثل بقية بنات الحارة. عندما كانت الحارة تفيض حباً. أحبت جارها.. جارنا محسن وأحبها. لم يكن الحب عيباً في أيامنا. كل بنات الحارة وشبابها أحبوا منها أو من الحواري

والشوارع المجاورة. كان الحب ينتهي بالزواج. حب لا يزيد عن نظرات وأحياناً يصبح مراقبة من نوع جميل. كانت هناك قصص حب يباركها الأهل ولا يتحرجون من ذكرها. فهم يعلمون نهايات هذه الحكاوي. زغرودة ومأذون وأكواب شربات وزينات وأنوار تعلق وفرح وزواج.

مديحة أختي الكبرى أحبت سلامة مجاهد وأحبها. كانت أمها وأمه يعلمان بالقصة من أولها حتى نهايتها. فاتحت أمها الحاج محمد الدكرني بالموضوع .. وافق وأتم الزواج. سلامة ما زال يضع مديحة في عينه وهي تخشى عليه الهواء الطائر. حياتهما "عال العال". الحارة كلها تحلف بهما وبولديهما. واحد موظف محترم في بنك والآخر مدرس. يخرجان من عملهما إلى المدبغة. لا يعودان إلا مع والدهما بعد أن ينصرف العمال وتغلق المدبغة. الكارثة أن صفاء أحبت في زمن متأخر.. زمن جديد. زمن أصبح الحب فيه عيباً للفقراء وحدهم. زمن خرج الناس فيه من مصر إلى السعودية والكويت. لم يعبروا النهر إلى الروضة أو المنيل. زمن عرف فيه الناس طريق المطار والطائرات والسفر وسمع فيه الناس كلمة العريس "اللقطة". يأخذ العروس بحقيبة ملابسها ولا يكلف أهلها شيئاً. لو كان محسن أحب صفاء "بدري" لاختلف الأمر.

محسن "حيلة" أبوه وأمه. ولد وحيد. كان معها في الجامعة في كلية تجارة. كنت أراه يخرج من الحارة متسللا صباحاً. ينظر

إلى النوافذ والشرفات. بعده بدقائق تخرج صفاء تنظر مثله. يسير كل منهما وحده حتى مرسى الأتوبيس النهري في مصر القديمة أمام قسم الشرطة. لا يقتربان من بعضهما إلا عند النزول إلى المرسى أو يستقلان التروللي باص من أمام مدرسة الفسطاط. أتوبيس زمان الذي كان يسير بالكهرباء الممدودة في أسلاك معلقة. عرفت من مراقبتهما جدول أيام ركوبهما الأتوبيس النهري أو التروللي باص.

انقطع خروجها بعد أن انتقلت صفاء إلى الروضة مع أمها وأخواها وإن ظل الحب موصولاً. بعد تخرجه استلم وظيفته على الفور. خطاب من القوى العاملة بتعيينه موظفاً في الجمعية الاستهلاكية القريبة من الملك الصالح.

كان يخطط محسن أن تعيش معهم صفاء في منزل أسرته. منزل من طابق واحد مثل بقية منازل الحارة أو على الأكثر يبني حجرة بمنافعها فوق السطح ولم تمانع صفاء. الفاتحة قرئت والخطوبة تمت قبل وفاة الحاج محمد الدكرني بعدة شهور. المصيبة أن أم الضابط خرجت إلى سطح الدنيا بعد انتقالها للروضة. لا تريد لابنتها أن تعود مرة أخرى للفرنساوي والحارة. حاولت المستحيل أن تفسخ الخطوبة. طلبت أن يستأجر محسن شقة في الروضة حتى يتم الزواج أو تأجيله إلى أن تتحسن الظروف. راتبه لا يسمح ولا يستطيع ترك والديه.

ضغطت وأصرت ومنعت صفاء من الخروج معه. منعتها حتى من زيارة أختها مديحة في الفرنساوي حتى لا تقابله. كانت تصلني الأخبار من مديحة والتي كانت ترفض طريقة أمها. فشلت محاولاتها لإبعاد الولد عن البنت. اتبعت طريقة أخرى. زيارات متكررة لأم محسن تطلب منها أن تبحث لابنها على زوجة على "قد الحال". لا يكون لها أخ ضابط أو قاضي أو أخت دكتورة.

"الزن على الودان أمر من السحر" ضعف محسن وخاف على كرامته. أخذت أمها دبلة الخطوبة من أصبع صفاء وقذفتها في وجه محسن وأمه وأبيه. ورقدت صفاء رقدتها الأولى. ذهبت بنفسي لمقابلة محسن في الجمعية التعاونية. تحدثت معه طويلاً. أخبرته أن لا ذنب لصفاء على الإطلاق. القصة من بدايتها لنهايتها من صنع أمها. حدثني عن الكرامة ولم يفكر في ضياع صفاء. حدثته عن الحب أو على الأقل ما أعرفه عن الحب الذي يصنع المعجزات. قال كلاماً جميلاً في حق صفاء ولعن أمها، فهو يعلم مثل بقية أبناء الحارة أنها ليست أمي. ألقى باللوم على أخوتها. أخي سالم وأخي شريف.

سالم بعيداً في كفر الشيخ وشريف يبعد نفسه عن مشاكل الأسرة. كان يعتبر موقف سالم وشريف تضامناً مع أمهما وأنهما غير موافقين على إتمام الزواج. رجوته أن يزور صفاء في المستشفى. حدثته عن الصدمة التي تعاني منها. كان هو أيضاً

يعاني. كرامته لم تجرح لكنها تنزف. رفض زيارتها وسافر .. سفره الطويل.

تحولت صفاء من وردة إلى هيكل عظمي. ظلت بلا حركة ما يقرب من شهرين. رفضت أن تعود إلى شقة الروضة. أخذتها مديحة إلى منزلها. ضاعت منها النضارة وبرزت عروق رقبتها.. عيونها الجميلة الهادئة تحولت إلى شيء أخر. أرسلوها إلى سالم في كفر الشيخ.

جاء هو وأخذها معه. ظلت هناك ما يقرب من عام. عادت إلى الروضة ورفضت استلام وظيفة القوى العاملة وأصرت على البقاء بلا عمل. تحسن حالها بعض الشيء. عادت لها الابتسامة لكنها ابتسامة مكسورة لا تكتمل. بعد كل زيارة لها كنت أغلق باب حجرتي وأبكي وأدعو على المتسبب أو المتسببة في مرضها وكسر قلبها بتعذيبه أو تعذيبها في الدنيا والآخرة.

جاءوا لها بعريس. لا أعرف من جاء به. اتصل بي أخي سالم يخبرني وأعطاني اسم العريس وعنوانه لأتحرى عنه. ضابط بوليس يطلب من مدبغجي إجراء تحريات. فكرت ثم تراجعت. زواجها ربما يشفيها من جراحها، يرد إليها بعض كرامتها خاصة بعدما سافر محسن. زواجها من الممكن أن يكون سبباً لمشاكل جديدة. سألت نفسي لماذا يطلب مني سالم السؤال عن العريس و لم يطلب ذلك من شريف. ربما أراد إبلاغي بأنني ما

زلت أخاهم وربما لجأ إلى ذلك لأدبر له "قرشين" من المدبغة لتجهيزها. سالم لا يلف ولا يدور. المهم عرفت كل شيء عن العريس وأهله. أبوه وأعمامه أصحاب مصانع نسيج في شبرا الخيمة وأصحاب عمارات في المنيل ومنيل الروضة. أبوه يمتلك ثلاث عمارات في الشارع الموازي للبحر. العريس كان "تلفان" في شبابه وربنا هداه.

أبوه ترك له المصنع ليديره. الكل فرح بالموافقة على الزواج. شريف لا يرى في العريس عيباً وسالم يردد كلمته التي أخذها من الحاج محمد الذكري "على خيرة الله" والدكتورة سامية ترى أنه عريس "لقطة". المعترض سلامة مجاهد وزوجته.. أختي مديحة.. تسأل بحرقة هل وافقت صفاء على العريس؟ تخبط على صدرها هل نسيت محسن؟ وماذا يحدث إذا ظهر مرة أخرى في الفرنساوي. ذهبت بنفسها إلى الروضة. جلست معها وحدها بعيداً عن أمها. عادت وأخبرتني أن صفاء موافقة على الزواج دون ضغوط من أحد.

فرح كبير في فندق هيلتون.. أخوها الضابط وأخوها القاضي يستقبلان المعازيم. جذبني سالم لأقف بجانبهما. لم أتعرف على ضيف واحد. لم يحضر الفرح أحد من الفرنساوي سوى مديحة وزوجها وأنا لا أحد من الجيران أو المعارف القديمة. أم الضابط تخلصت مما تظنه الفقر وأيامه. القصص تدور حول أملاك العريس وأهله والمصانع التي أخذها منهم جمال عبد الناصر في التأميم إلا أنها عادت لهم مرة أخرى. أبو

العريس لا يفارق شفتيه سيجار ضخم كبير. تذكرت شيشة الحاج محمد الدكرني.

مسئولون كبار حضروا الفرح. أشاهد صور بعضهم في الجرائد. أنقل عيني بين الضيوف وبين العروس والعريس. يبدو أنه أكبر من صفاء بعشرة أو خمسة عشر عاماً على الأقل. أصلع الرأس. دائم الابتسامة. وهي.. هي النظر إليها يبكيني. أشعر بألمها وأحزانها وأتخيل محسن جارنا وأظن أنها كانت تتخيله. ستسكن بجوار أمها. شقة بالدور الثالث تطل على مقياس النيل بالروضة تم تجهيزها. العمارة من أملاك والد العريس أعطيت لسالم عشرة آلاف جنيها لتجهيز أختنا صفاء. أمها تكاد ترقص من الفرح. لولا وجود أبنائها لقامت ورقصت مع الفتيات. لم تفكر لحظة في حياة ابنتها وتعاستها الواضحة لكل من يعرفها قبل مرضها.

عندما أجلس في حجرتي أتمعن في كلمات أغنية عبد الحليم. كنت أحفظ كلماتها في شبابي وحفظتها مرة أخرى عندما عادت صفاء إلى منزلنا القديم بعد مرضها. نفس المرض الأول مرض نفسي أو "نفساوي" لا يهم. كل كلمة في الأغنية تحكي حكاية صفاء. كنت أعرف منذ البداية أن مرض صفاء سببه حبها الضائع أو حبها المقتول. بعد سنوات طويلة من زواجها وإنجابها لشاب وعروسة "على وش جواز" تسأل نفسها ويسألنا

عبد الحليم حافظ: "بعدنا.. بعدنا ليه.. تعبنا. قول من إيه؟ دي ليالي عشناها.. ابداً مش هنساها.. ليلي ونهاري وأنت على بالي".

أنا لم أشارك في هذه الجريمة. حاولت منعها قدر استطاعتي وسالم يعرف ذلك. يعرف أن أمه هي السبب وجبروتها وتسلطها قضى على صفاء .. لن أسمح لأخي سالم أن يتهمني. سأخبره أنه يعرف الحقيقة كاملة وأن أمه هي السبب. هو من شارك في الجريمة وشريف وسامية وكنت أنا ومديحة وزوجها سلامة مجاهد ضد كل تصرفاتها. أتعبتنا في حياتها وأتعبتنا بعد مماتها ونسأل أنفسنا تعبنا.. تعبنا ليه؟

بقدر حزني على مرض صفاء كانت فرحتي بعودتها إلى الفرنساوي وإعادة فتح منزل الحاج محمد الدكرني وزيارات الأخوة. سعادتي بالحركة التي دبت في المنزل ورائحة الطعام والشاي والقهوة ودخولي مبكراً إليه. كان المنزل بالنسبة لي مجرد فندق. أدخله عند النوم وأتناول وجباتي خارجه. كانت المدبغة هي منزلي ومطعمي وملتقى أصدقائي ومعارفي وزبائني.

أحضرت من المدبغة بعض العمال لتنظيف المنزل وإعادة طلائه من الداخل والخارج. أجريت بعض الإصلاحات فيه. درجات السلم المتآكلة قمت بتغييرها وأصبح مدخل المنزل كله من الرخام الكرارة الجميل اللامع. أخي شريف جاء ذات خميس. طل على صفاء وجلس معنا بعض الوقت وانصرف.

اقترحت عليهم تغيير موعد الزيارة وليكن يوم الجمعة. يحضر الجميع قبل الصلاة. نصلي في مسجد ساعي البحر أو الفرنساوي ثم نتناول جميعاً الغداء وينصرف من يرغب في الانصراف ويظل من يرغب في البقاء.

الجمعة عطلة بالنسبة لي وللجميع. أخي سالم في عطلة دائمة تمكنه أن يأتي وقتما يشاء. وافق الجميع. اقترحت عليهم أن أعفي أختي مديحة من واجب الضيافة وخدمة الأخوة. اتفقت مع طباخ عجوز من سكان الحارة لإعداد الغداء وكل ما تفعله مديحة هو مساعدته فقط. طلبت أن يحضر الأبناء أيضاً ولم يعارض أحد. الكل يرغب في التواصل مرة أخرى. مصيبة صفاء دفعتهم للاقتراب من بعضهم. نحن في حاجة إلى بعض الدفء والمحبة. الكل يحتاج إلى جرعة حنان وأكثرنا احتياجاً هي صفاء. بدأت تحرك يديها وقدميها. دكتورة العلاج الطبيعي التي تزورها مرتين في الأسبوع تبشر بأن هناك تحسناً.

يوم الجمعة أصبح عيداً لصفاء. إبنها وائل وابنتها منى اعتادا زيارتها والجلوس مع أخوالهما وخالتهما. إبنا شريف يأتيان أسبوعاً ويتغيبان أسبوعاً آخر. ابنه الأكبر معاون نيابة سيصبح قاضياً مثل أبيه والآخر طالب في كلية الشرطة سيصبح لواء مثل عمه. ولدي مديحة اقتربا وتعرفا على أبناء الدكتورة سامية وشريف وسالم وإن كان ابن وبنت صفاء أكثرهما استعلاء بعض الشيء. يأتيان معاً وينصرفان معاً في سيارة مرسيدس حديثة.

تغير معاملة أبي وظهور زكي جعلت أمي تظن أنه تـــزوج عليها وأن زكي هذا ابنه وغيرها من الوساوس الغريبة وســـاعد أبي بصمته ورفضه الإجابة على اسئلتها في نمو ســـوء ظنـــها. سارت الأمور. أنا تزوجت سلامة. سالم دخل كلية الـــشرطة، بعده بعام التحقت سامية بكلية الطب ثم شريف بكلية الحقوق وزينب بكلية التجارة وصفاء في المدرسة الإعدادية المجـــاورة. وأمي تدعي أنها سبب سعد والدي وهو لا يكترث.. تتهمـــه بأنه بلا أحلام وهو لا يعيرها اهتماماً. تؤكد أنه لولاها لظل في خارطة أبو السعود وظل عاملاً باليومية وصمته يزيدها غيظاً.

جاءت الطامة الكبرى عندما ذهبت إلى الروضـــة لزيـــارة إحدى جاراتها القدامى من خارطة أبو السعود. الجارة كـــان زوجها يعمل في جمع حوافر الماشية وصناعة الغراء ثم تحول إلى صناعة الأحذية وفتح الله عليه وانتقل إلى الروضة. اشترى مترلاً من أربعه طوابق. لم تنم أمي شهوراً. تريد أن يبيع أبي مترلنا في الفرنساوي ويـــشتري بيتـــا في الروضـــة أو المنيـــل. الأولاد سيتخرجون من الجامعة ولابد من الخروج مـــن الفرنـــساوي ومصر عتيقة كلها. رفض أبي في البداية وفي النهايـــة رضـــخ. استأجر شقة في الروضة وانتقلت الأسرة إليها وظـــل هـــو في المترل يذهب إلى الروضة في زيارات خاطفة.

الفراق مكتوب علينا. افترقنا وأصبح المترل مهجوراً وذهب الأشقاء وظل زكي في حجرته بالدور الأرضي. رغم قصر المسافة بين الفرنساوي والروضة إلا أنني لم أكثر من زيارة أمي وإخوتي خوفاً من سلامة مجاهد زوجي أو إغضابه. كنت أخشى أن يشعر بأنني مثل أمي.. أحلامها كبيرة وكنت أخشى أن يظن أنني مثلها قد أطلب منه الانتقال إلى المنيل أو الروضة ودفعه لترك والده ووالدته. خرجت أمي من الفرنساوي وتركت كل شيء وراءها حتى أبي. لم تفكر أن تحضر مرة إلى المترل لتعد له وجبة أو تغسل له ملابسه. تكفلت أنا بكل شيء. أعد له طعامه وأغسل له ملابسه مع ملابس سلامة مجاهد والأولاد. شهور وتوفى الحاج محمد الدكرني ولم يعد لأمي في الفرنساوي سواي وصفاء المرتبطة بمحسن جارنا. عملت المستحيل لفسخ الخطوبة ونجحت ورقدت صفاء ولم تهتز أمي. صفاء أسرارها معي. كانت لا تتخيل أن تتزوج غير محسن ولا تفكر في أن تلمس يدها غير يد محسن ولا تلبس في أصبعها دبلة غير دبلة محسن وانتهى المطاف بهما إلى ما انتهى إليه. هو سافر فجأة ومرضت صفاء.

بمجرد سماعي خبر صفاء ،هرعت إلى الروضة بجلبابي الأسود وشبشب في قدمي. وقعت صفاء في الصالة ونقلوها إلى حجرة النوم. جاءوا بطبيب. قال إنها أصيبت بشلل أو جلطة.. لا

لم يعد سالم يتحدث عن مصيبة صفاء. المشكلة أنه كـــان يعامل ولدها وابنتها بجفاء شديد. الابن يريد ترك البلد والهجرة إلى أمريكا والبنت فسخت خطوبتها وخطبت من جديد لشاب أخر. الولد رغم ثراء والده يؤكد أن البلد تصعب الإقامة فيها، فهي في نظره بلد "وسخه" واسأل نفسي مـــاذا يفعـــل أبنـــاء الفقراء؟ وماذا يفعل من لا يجدون عملاً أو وظيفة رغم تخرجهم من الجامعة وماذا يفعل أخي سالم الذي يبحث لإبنيـــه عـــن وظائف؟

مديحة وزوجها سلامة مجاهد و إبناها مثال الرضا والقناعة. عائلة الذكري أسرة واحدة فرقتهم الدنيا. سبحان من أوجد في كل قلب ما يشغله. شغلتنا صفاء وقربتنا من بعضنا. وحركت فينا قليلة الحركة مشاعر الحب من جديد. كنا منـــذ ســـنوات صغاراً. كل منا يحلم. هناك من حقق أحلامه إلا أنه غير راض بما وصل إليه. وهناك من لم يحقق شيئاً وعبد الحليم يغني "عشنا الحب في الأيام وكل بكره فيه أحلام.. أتاري كل ده أوهام".

الغريب في جلسة صفاء أنها عرّفتنا من جديد على بعـــضنا. عرفت أنا مساحة الرضا والقلق في إخوتي. الكل راضٍ وقلـــق في الوقت نفسه. منهم من تزيد مساحة الرضا في قلبه ومنـــهم من يغلب عليه القلق، إلا أن أشدهم رضا سلامة مجاهد وأختي

مديحة. يرى أنه فعل كل ما قُدر له أن يفعله. عمل وكوّن أسرة. قضى حياته بين شركة النصر للمطروقات في حلوان ومدبغة والده وتفرغ لها حالياً بعد الخصخصة والمعاش المبكر. استلم المكافأة ودفع نصفها رشوة ليعين ابنه الأصغر في البنك. الرشوة في رأيه - عكس سالم أخي - حلال طالما أنك لا تأخذ حق غيرك.

المفتي قال ذلك وعلناً في التليفزيون. أخي شريف لا يتحدث في مثل هذه الأمور، فهو يجلس معنا وكأنه في المحكمة. يصدر في النهاية أحكاماً. يعارض سالم فكرة الرشوة من أساسها حتى ولو قال بها الأنبياء وليس المفتي. فهو في حياته لم يرتش ولم يدفع رشوة ولو ظل على هذا الحال لن يجد لابنيه وظيفة. أما أنا فالرشوة بالنسبة لي "تمشية حال" أدفعها راضياً. المرة الوحيدة التي رفضت أن أدفع فيها رشوة عندما تقدمت لحج القرعة.

لم أتخيل أنني أدفع رشوة لزيارة بيت الله. حج القرعة يكلف حوالي ثمانية آلاف جنيه وتجرى القرعة في أقسام الشرطة. عند الحديث عن الشرطة يصمت أخي سالم وكأنه لم يعمل بها. موظف السجل المدني يريد ألف جنيه ليضع إسمي في كشوف القرعة .. رفضت. دفعت ضعف التكلفة وسافرت عن طريق شركة سياحة. حج سياحي. الحسنة فيه بعشرة أمثالها.

الرضا والقلق في صدور أخوتي جعلني أفكر في أمر نفسي. أنا بلا زوجة أو أبناء وليس لي ورثة. الأوراق الرسمية تقول إنني لست أخاهم فماذا لو وافتني المنية وأنا أمتلك رسمياً حصة من المترل والمدبغة وإلى من يذهب هذا الميراث؟ إسمي في الأوراق الرسمية زكي أبو السعود الجارحي. أفكر في عرض الأمر على إخوتي وأن أتنازل لهم عن نصيبي في المترل والمدبغة. فكرت في ترك نصيبي في المترل لأختي صفاء ونصيب المدبغة لأخي سالم ونصيبه مع نصيبي يساعده في التعامل مع الغلاء. سالم أصبح من أصحاب المعاشات. رفض أن يعمل بعد الإحالة للمعاش في أي مكان.

كانت فرص العمل المتاحة أمامه في شركات قطاع خاص والرواتب مغرية، إلا أنه كان يرفض. يقول إن أصحاب هذه الشركات أغلبهمَ إن لم يكن كلهمَ ليسوا فوق الشبهات ومن كان منهم يرتعش من معاون مباحث أصبح يشغل عنده ثلاث أو أربع لواءات، ليس لا شيء سوى أداء التحية له عند دخوله وخروجه أو الاستفادة من خبراقم وعلاقاقم بالشرطة لتسهيل أمور يعاقب عليها القانون. رفض كل فرص العمل وأصر على موقفه ورضي بمعاشه بالإضافة إلى نصيبه من أرباح المدبغة. أنا إذا تنازلت له عن حصتي قد تساعده كثيراً. سأعرض الأمر على أخوتي، على أن يخصصوا لي راتباً مقابل إدارة المدبغة.

يوم جمعة جديد بدأ فيه الأهل التوافد على المترل. كالعادة سالم أول من يصل. شريف بدأ ينتظم في الحضور وتحضر الدكتورة سامية ثم يأتي زوجها بعد الصلاة وصفاء تتحرك بينهم بالكرسي. تنتقل لتجلس بجانب كل منهم بعض الوقت. يداها قويتا بعض الشيء. تحرك عجلات الكرسي بنفسها. ترفض بلطف من يحاول أن يحرك لها الكرسي. كل الأحاديث تدور حول الدنيا والأيام وما ينشر في الصحف وما يذاع في التليفزيون. الكل يؤكد أن الحكومة لا تكترث بما تكتبه الصحافة. تحدثت أنا فيما أفهم فيه. ارتفاع أسعار الجلود والمواد الخام المستخدمة في دباغتها. الكيماويات القادمة من الخارج يرتفع سعرها كل يوم بدعوى ارتفاع سعر الدولار وماذا عن الجلود المحلية.

جلود البقر والجاموس التي لا علاقة لها بدولار أو غيره. الغلاء شمل كل شيء والجشع السبب.

من يكسب ألفاً من الجنيهات أسبوعياً يريدها أن تصبح ألفين. وجدها فرصة لأطرح موضوعي المؤجل. التنازل عن نصيبي في المترل والمدبغة. كادت صفاء أن تصرخ وتسقط من فوق كرسيها. تشير بيديها رافضة الفكرة من أساسها وسالم يهدئ من روعها ويرفض هو هذا العرض داعياً لي بالعمر الطويل. قال ما أدخل السعادة في صدري. وجودي في المترل

والمدبغة امتدادٌ للحاج محمد الدكرني وأنني خير أخ. نـــصيب كل منهم يصله في نهاية العام وإذا اضطر أحد أو احتاج بعض المال، يصله في التو واللحظة. الكل رفض الفكرة. كانت صفاء أكثرهم جلبة. تشير بيديها وتهز أبهامها بعصبية رافـــضة هـــذه الفكرة. اتفقنا أن تظل الأمور كما هي حتى يقضي الله أمـــراً كان مفعولاً. وغنى عبد الحليم وأزاح الغضب من على وجـــه صفاء.

المثير أن إبنها وائل وابنتها منى كانا أكثر الجالسين اندهاشاً من مجرى المناقشة. الدهشة على وجه الولد والبنت لا أعـــرف سبباً لها، ربما يكون اكتشافهما لهذا القدر من الحب الغريـــب بين الأخوة. هذا الحب المفقود في أسرتهم الـــصغيرة. الأب في مكان والأم مريضة في مكان أخر والولد يفكر في نفسه والسفر إلى أمريكا والبنت تنوي السفر بعد زواجها. الولد والبنت كانا ينظران إلينا كأننا مخلوقات من عالم أخر. عالم لا يعرفانه، فهم أبناء اللحظة والمصلحة. تحدثت عن الجد محمد الدكرني لعـــل وعسى يفهمان ما أرمي إليه. تحدثت عن بيـــت قـــديم كـــان يسكنه الحب وأب يعامل الكل سواسية. إذا اشترى أحذيـــة.. اشتري للكل، كل الأولاد، وإذا أشتري كسوة الشتاء، لم ينس أحداً. كان الإخوه يتبادلون ملابسهم معاً. يتشاجرون أحيانـــاً إلا أنهم في نهاية اليوم يحتضنون بعضهم البعض.

تحدثت عن نفسي. أنا من عثر عليه الحاج محمد الدكرني. لم يشعرني لحظة بأنني غريب. كنت مثل سالم وشريف تماماً حتى بعد أن تركت المدرسة .. حاول أن يفهمني أنني دخلت مدرسة أكبر وأحسن.. مدرسة الحياة. وعندما مات اكتشفنا الوصية لتظل الرابطة إلى الأبد وعندما رغبت أن أتنازل لهم عن نصيبي.. رفضوا أن أنسحب من حياتهم أو تنسحب مني حياتي. ويغني عبد الحليم "أيام ضاعت يا سلام في عذاب وألم.. سهران ما بنام.. قضيت الليل مع قمر الليل ونجوم الليل تحكي في كلام.. ياما قلت عنك وغلبت شكوى منك وحياة الغالي عندك .. أبقى افتكرني.. حاول تفتكرني" وأهز رأس طرباً وتمسح صفاء عينيها بظهر يدها وتبتسم وينصرف الجميع.

نزلت مع أخي سالم. يشغلني صمته. صفاء ليست المشكلة الوحيدة في حياته وإحساسه بأنه شارك في إيذائها أو التسبب في مرضها ليس الشيء الوحيد الذي يؤلمه. هناك مشكلة ولديه اللذين يجلسان في المترل مثل الحريم بلا عمل. هناك مشروع في ذهني لو وافق عليه أخي سالم وتقبله ولداه لتخلصا من البطالة وظل اسم الدكرني في عالم الدباغة إلى ما شاء الله. من الممكن أن يوافق سالم. عليه اختيار أحد ولديه لا يتأفف من مهنة أهله ويعمل معي في المدبغة التي أفكر في تحويلها إلى شركة مساهمة محدودة لأتخفف من عبء الضرائب كما فعل العديد من أصحاب المدابغ المجاورة.

أفكر أيضاً في إنشاء شركة صغيرة لاستيراد كيماويات الدباغة من الخارج. رأس المال المطلوب ليس بمشكلة.. من الممكن تدبيره. المشكلة في الأولاد. شركة استيراد الكيماويات كل ما تحتاجه مكتب صغير ولدينا في المدبغة مكان وتحتاج مخزناً كبيراً والمدبغة واسعة وهناك جزء خلفي منها غير مستغل. لو قبل سالم الفكرة وتقبل ولداه العمل معنا لن يحتاجا إلى وظيفة أو وساطة أو تعيين في حكومة أو غيرها. يدخل سالم وولداه وسلامة مجاهد زوج أختي شركاء وإذا رغبت صفاء وسامية وزينب.. فلا مانع ويستمر اسم الذكرني.

سمعة المدبغة واسم الذكرني في السوق سيساعد كثيراً. الكيماويات تستورد في براميل كبيرة ومن الممكن تعبئتها في عبوات أصغر للمدابغ الصغيرة. توفر احتياجاتنا ثم نبيع الباقي. قرب المكان سيوفر كثيراً لأصحاب المدابغ.. لا نقل ولا مواصلات والعبوات الصغيرة سيزيد الطلب عليها. لم يتردد سالم. وافق على الفور. ولداه يعلمان أن جدهما مدبغجي. ربى أبناءه من عرقه وكده وشقاه.

المشكلة في المكان الذي لم يألفه الولدان و لم يفكرا ذات مرة في زيارة المدابغ. سيحضر سالم في الصباح الباكر ومعه ولداه. يجلسان مع عمهما زكي وتتم مناقشة المشروع من كافة جوانبه. سالم لديه جزء من مكافأة نهاية الخدمة. نطق جملة

الحاج محمد الدكرني "على خيرة الله". لم أنس أن أبلغه أنني لم أشارك في جريمة صفاء وأنها بفـــضل الله تتحـــسن. حركـــت أطرافها وسينطق لسانها عما قريب كما حدث لهـــا في المـــرة الأولى. عندما دخلت حجرتي وألقيت رأسي علـــى الوســـادة شعرت بأنني تخلصت من حمل ثقيل كان يضغط على صـــدري وعلى قلب أخي سالم.

الأخت الكبرى

أنا أختهم الكبرى. أسرار العائلة أعرفهـــا كلـــها، حـــتى الخلافات الزوجية، أعرف الميسور منهم وأعلم مـــن يقـــضي شهره بمعجزة. أنظم لهم الجمعيات أو أطلب لهم من زكي أخي سلفة تحت الحساب من دخل المدبغة يخصم نهاية العـــام. أنـــا كبيرتهم مع أنني الوحيدة التي لم تتعلم. خرجت من المدرسة في الصف الأول الإعدادي. مدرستي كانت في ناحيـــة شـــارع الفرنساوي. مدرسة عمرو بن العاص الإعدادية للبنات. مازلت أحتفظ ببعض الكتب والكراسات. كانت أمنـــيتي أن أكمـــل تعليمي وكنت في الوقت نفسه أهوى شغل البيـــت.: كـــنس ومسح وطبخ. كنت أرغب في الزواج.

بعد سنة واحدة من ترك الدراسة خطبني زوجـــي ســـلامة مجاهد وبعد سنتين أكمل والده بناء شقة فوق متزله وتزوجنـــا.

صفاء أختي كنت أنظر إليها على أنها ابنتي. حملتها بيدي وهي رضيعة وظلت أقرب الأخوات لي.

زكي دائماً ما يتهم أمي بأنها سبب "وكسة" صفاء. كان يكره أمي وكانت تكرهه. كانت تناديه أحيانا بأسم "ابن الحرام". يجلس تحت بير السلم يبكي بالساعات وعندما أسأله عن سب بكائه لا يجيب. أخبرني بالحقيقة مرة ونحن صغار. سألت أبي عن ولاد الحرام. إجابته كانت واضحة محددة. ابن الحرام تحمل فيه أمه دون زواج وعند ولادته ترميه في أي مكان حتى لا تفضح. أولاد الحرام الذين يُعثر عليهم في الشوارع وأمام عتبات المساجد في الفجر عمرهم أيام. زكي ليس ابن حرام. عثر أبي عليه وعمره حوالي ثلاث سنوات. كان يعرف اسمه ويجهل اسم أبيه وأمه. كانت سعادة زكي لا توصف عندما أخبرته بأنه ليس أبن حرام، إلا أن كراهيته لأمي استمرت. كانت تعامله بقسوة وخشونة و لم ينقذه منها إلا أبي عندما أخذه معه للعمل في المدبغة.

أمي ليست السبب الوحيد في "وكسة" صفاء. ظروفها كلها "ملخبطة". بنات كثيرات خُطبن وأحببن وفشلن واستمرت حياقمن بعد ذلك. صفاء "رهيفة" وهذا سبب مشاكلها، إلا أن أمي ليست بريئة تماماً فهي سببت العديد من المشاكل لكل فرد من الأسرة بطريقة مختلفة. ربما لا تريد إيذاء

أحد إلا أن تصرفاتها أصابت الكل بأذى. أنا الوحيدة من إخوتي التي أعي كل شيء منذ أن كنا نسكن في خارطة أبو السعود. أبي كان يعمل باليومية لدى مدبغة كبيرة. يدخر القرش على القرش. كان يخطط أن يفتتح مدبغة لنفسه.

عطلته أمي عن تحقيق حلمه لمدة عشر سنوات أو ما يزيد. عطلت حلمه لتحقق حلمها بالانتقال من خارطة أبو السعود إلى مكان أفضل. شاهدت أول "خناقة" بين أبي وأمي. هدد بتحطيم المنزل وهدمه فوق رؤوسنا. كنت أنظر إلى الجدران والسقف في حالة ذعر وأسأل نفسي ماذا يحدث لو هدم المنزل وأين سنعيش؟

طيبة أبي هي بداية المشاكل. كان يعطي كل قرش يدخره لأمي. كانت أكثر حرصاً منه. تعمل جمعيات مع نساء الحارة من وراء ظهره. عرفت منها أول مرة في حياتي طريق "البوستة" مكتب البريد. فتحت دفتر توفير بأسمها. كانت تضع فيه كل قرش. كان أبي يسألها من وقت لآخر عما معها من نقود وحجم المدخرات. كانت تخبره وأمله أن يصل المبلغ إلى ألفي جنيهٍ ليشتري قطعة أرض بجوار المدبغة التي يعمل بها ويحولها إلى مدبغة خاصة به. كان صاحب المدبغة الكبرى التي يعمل بها يشجعه. يخبره من وقت لأخر أنه بدأ حياته مثله، صبي ثم عامل مدبغة ثم صاحب مدبغة.

كاد يطير من الفرح عندما أبلغته أمي أن دفتر التوفير أصبح به ألفين من الجنيهات سيحقق حلمه. طلب منها سحب المبلغ لشراء قطعة الأرض الحلم. رفضت تماماً تشاجرا. هدد بهدم المنزل.. كنت صغيرة وسالم يحبو وزكي لم يظهر بعد. رفضت بشدة وأصرت على شراء منزل في الفرنساوي أخبرتها إحدى قريباتها بأنه معروض للبيع بألفي جنيه ومن الممكن تخفيض سعره إلى ألف وثمانمائة. هددها أبي بالطلاق وكنت لا أعرف ماذا تعني الكلمة. ظل عدة أيام يبيت في المدبغة لا يأتي إلى المنزل. في النهاية رضخ لمطالبها. اشترى منزل الفرنساوي الذي تعيش فيه صفاء الآن وزكي. كتب المنزل باسمه ودخل معركة أخرى مع أمي وتأجل حلم المدبغة سنوات وسنوات.

انتقلنا إلى المنزل الجديد. واسع ونظيف وسكان الشارع أنظف من سكان حارطة أبو السعود وعلى مقربة من الكورنيش. خطوات ونعبر الطريق ونجلس على الكورنيش. معاملته تغيرت بعض الشيء وكبرنا بعض الشيء وعثر على زكي. بعدها حملت أمي في الدكتورة سامية وجاء بعد ذلك شريف وزينب وصفاء. قبل خروج أبي إلى العمل كان يترك مصروفاً. لم يعد يترك لها ماله لتدخره وفجأة أعلن عن شراء قطعة الأرض وتحويلها إلى مدبغة وبعد سنتين أخريين بدأ في إقامة الدور الثاني في المنزل واستقرت بنا الحياة في الفرنساوي.

الولد خريج الجامعة الأمريكية وكما فعل جده مع أبيه، فعل أبوه معه. ترك له المصنع لإدارته والبنت كانت في مدرسة راهبات ثم دخلت الجامعة. ملابسها لا علاقة لها بالراهبات أو غيرهن. الأب لم يأت ولا مرة واحدة لزيارة زوجته صفاء. يتصل بي من وقت لآخر في التليفون يسألني عن أخبارها. كنت على وشك أن أطلب منه أن يزورها. عرضت الأمر على أختي مديحة نصحتني بألا أطلب منه ذلك. غيابه أفضل بالنسبة لصفاء وحتى لا تصاب بانتكاسة شديدة. لم أحاول أن أسأل أو أستفسر. كل ما يهمني مصلحة صفاء.

فرحتنا بعودة الحركة إلى صفاء كانت كبيرة. أشتريت لها "مشاية" وكرسي متحرك. كانت تمشي بضع خطوات مثل الأطفال ثم تعود لتجلس على الكرسي. بدأت الحركة بالكرسي داخل الشقة. كانت تأتي لتجلس بيننا يوم الجمعة. بدأت تتناول طعامها بنفسها وإن كانت قبضتها على الأشياء ضعيفة إلا أنها تتحسن. تجلس معنا يوم الجمعة ما لا يقل عن ثلاث أربع ساعات. تتناول الغداء معنا ثم تدخل حجرتها، وأقامت معها مديحة إقامة شبه كاملة. تطبخ من منزل الحاج محمد الدكرني وترسل الطعام إلى زوجها وأبنائها وعادت الحياة من جديد إلى منزلنا القديم.

يوم الجمعة أصبح عيداً بالنسبة لي على الأقل، اتسعت الدائرة .. الدكتورة سامية تحضر بصحبة زوجها وأولادها وبدأت زوجة سالم تحضر معه وأبناء شريف أيضاً. الإحساس بأن لك أهل وعائلة لا يشعر به إلا من حُرم منه. اشتريت مجموعة كراسٍ وبعض الموائد الصغيرة لتناسب أهل البيت الجدد. أخي سالم كان أكثرهم سعادة بالعودة إلى الفرنساوي. يحضر الكل قبل صلاة الجمعة بما يقرب من ساعة. يفتح التلفزيون على القرآن الكريم ونقل شعائر الصلاة. يذهب الرجال والشباب إلى مسجد ساعي البحر أو جامع الفرنساوي.

نعود للغداء ويُفتح المسجل على أغنية صفاء المفضلة وعبد الحليم. الكل يحكي ذكرياته مع هذه الأغنية. حتى زوجة أخي سالم تعشق عبد الحليم. اكتشفت أنها بنت بلد وتتحدث مثل أخي سالم تماماً إذا ناداها أحد تقول أفندم. زوج الدكتورة سامية يدخن ولا يتحدث. يأتي ومعه كومة من جرائد يوم الجمعة. شريف يتذكر أصدقاءه في المنطقة ويسأل عن بعضهم بالاسم. منهم من ذهب للإقامة في الهرم أو في المعادي أو زهراء مصر القديمة .. كل من تعلم في الحارة خرج منها، حتى بنات الحارة خرجن منها.

أتذكر بالضبط ما قيل أيامها. رقدت دون حركة و لم تنطـــق. كنت أعلم أن هذا المرض يسمى بـــ "النقطة" أصاب بعـــض جيراننا من كبار السن بعد الشجار أو الانفعال الشديد. ربمـــا أصيبت صفاء بالنقطة. فما حدث لها ليس بالشيء البـــسيط. استأذنت سلامة مجاهد زوجي أن أظل معها في المترل عدة أيام. لم يمانع. كنت أنام بجوارها على السرير مستيقظة طوال الليل. أنظر إلى السقف وأتحسر على شباها .. ليل طويل بارد لا أسمع فيه إلا نقيق الضفادع القريبة من النيل ودقات قلبها. لأول مرة في حياتي بدأت أخاف الليل وصمته. كنت أحيانـــاً أتخيـــل أن قلبها توقف. أضع أذني على صدرها. أستمع لدقاته وشكاواه. أتخيل حبيبها وخطيبها محسن. لا أستطيع أن أظلمه أو أبرئه.

جاء إخوتي بأطباء أخرين. أجمعوا أها "مصدومة" صـــدمة نفسية.. تساءلوا عن أسباب الصدمة. أفصح لهم شريف بخجل عن السبب. كانت مخطوبة وكل شيء نصيب. طلبوا نقلها إلى مستشفى لتبعد عن أسباب التوتر. رفضت أمي بـــشدة وعـــاد أخي سالم في أجازة. أخذها معه عند عودته إلى كفر الـــشيخ. ظلت هناك فترة طويلة كان سالم يطمئننا بالتليفون عن أخبارها ويؤكد تحسنها. جاءت معه في أجازة. شفيت.. تتحرك وتتكلم بانكسار. كانت لا تجرؤ على النظر في وجه أمي. جاءوا لهـــا بعد فترة بعريس. قالت أمي إنه "لقطة" وجاهز وأصرت علـــى إنهاء إجراءات الزواج بأسرع ما يكون.

أُعجبت أمي بالعريس اللقطة الذي لا يكلف أهل العــريس شيئاً مثل عريس أختي زينب الذي كان يعمل في الــسعودية. قدم الشبكة وعقد القران وأتم الزفاف في أسبوع وحملها معــه بحقيبة ملابسها و لم نرها إلا مرة في عشرين عامــاً. اســتقرت هناك وأصبح لديها أولاد وبنات لا نعرفهم وسمعنا أنهم أقــاموا منزلاً في مدينة أكتوبر. يحضرون إليه في الأجازات. لا يزورون أحداً ولا أحد يزورهم. بعد زواج زينب أصبح العريس اللقطة حلم أمي. عندما فسخت خطوبة صفاء وأعترضت كادت أن تفتك بي. قلت لها إنها تحب محسن ويحبها. قالت تحب من تريد ونزوجها نحن من نحبه ونريده!

"اللي تحبل في اسطنبول يجيبوا خبرها لمــصر". أهالينــا في الفرنساوي علموا بخطوبة صفاء. سلامة مجاهد زوجي وأبــوه وأمه والجيران. بدأو الكلام والحديث عن قلة الأصل وأن محسن موظف الجمعية الاستهلاكية لم يعد يليــق بأخــت الــضابط ووكيل النيابة والدكتورة وغيره من الكلام غير اللائق. وصــل الحديث إلى مسامع زكي وكان سالم وشريف قد أخبروه بشأن العريس. طلب زكي مني أن أذهب إلى الروضة وأن أجلس مع صفاء على انفراد وأسمع منها رأيها في العــريس وإذا كانــت موافقة عليه أو أن أمها أجبرتها على قبوله.

قال لي زكي بالحرف الواحد إذا كانت صفاء غير موافقة على العريس الجديد سيحضرها بنفسه إلى الفرنساوي ويحضر محسن من سفره وسيكمل إجراءات زواجها رغماً عن الجميع. ذهبت إليها وجلست معها واستمعت لها. قالت إنها قبلت هذا العريس دون ضغوط وأن محسن انتهى أمره بسفره ولو كان هناك حباً حقيقياً لتحمل بعض الشيء، إلا أنه تركها وسافر وهي ستتركه، ستنساه وتتزوج. أخبرت زكي بما دار بيننا. بكى واكتفى بقوله "منها لله أمك".

حضرنا حفل زفافها في الفندق مثل الغرباء. وبعدها بشهور دعت العائلة كلها إلى مأدبة في مترلها. شقة واسعة. أثاث أغنياء. أباجورات ورسومات على الحائط. ستائر مختلفة الألوان. مائدة السفرة حولها أكثر من عشرين مقعداً. طعام.. لحوم وأسماك وأشياء أخرى. سألتها كيف أعدت كل ذلك. ابتسمت. الطعام جاهز. جاء من أحد الفنادق الكبيرة القريبة. زوجها كان كريماً بشوشاً. رحب بنا ولم يخاطب أحداً إلا بكلمة "بك" والنساء بكلمة "هانم". تحدثت مع صفاء على انفراد. خرجت معي إلى البلكونة الواسعة التي ترى النيل كله من ناحية مقياس الروضة.

جلسنا على مقعدين متقابلين. أنظر إلى وجهها وعيونها. أسألها عن الزواج وأخباره. كانت خجولة.. فجأة انتصبت واقفة.. وقفت بجوارها واستندنا إلى افريز البلكونة المليئة

بأصص الزرع والورود. أشارت إلى النيل.. إلى حجر كبير .. صخرة بالقرب من الضفة بجوار سلالم حجرية. قالت. هنا على هذا الحجر كنت أجلس أنا ومحسن بالساعات. نتكلم عن المستقبل.. عن الزواج والأبناء ومن سيختار أسماءهم. وفرت من عينها دمعة واكتشفت أنها ليست سعيدة وأن محسن الذي سافر وتركها، ترك وراءه جروحاً وألماً وأحست أن زواجها قد لا يدوم.

في عامين متتاليين أنجبت وائل ومنى. ثالث مرة نزورها في بيتها يوم "سبوع" منى. زوجها ليس الذي عرفناه أول مرة. قلق وعبوس. كانت أمنا قد ماتت وشعرت بدوري تجاهها. أنا أمها. أحضر لها الطعام وأحمله من الفرنساوي إلى الروضة. كان زكي يدفع جميع مصاريف الفراخ واللحوم وعليّ الطبخ وحمل الطعام إليها. ثالث وأخر مرة أزورها في بيتها. بعدها جاءت هي وزوجها وطفلاها لزيارتنا في الفرنساوي.

طلب زوجي سلامة مجاهد أن أعد لهم طعاماً لا يقل عما أعدوه لنا في الزيارة الأولى. منزلنا متواضع. ترابيزة سفرة بأربعه كراسي لا نجلس عليها كثيراً. نفضل الأكل على "الطبلية". بعد هذه الزيارة أمر سلامة زوجي بألا نزورهم ولا يزورونا. قبلت الأمر على مضض. زوجها كان "جلفاً" عكس ما عرفناه عنه. حاول أن يسخر من سلامة في منزله وتحمله سلامة بأدب وكتم غيظه.

صالة شقتنا واسعة. مبان قديمة نوافذها عالية. تتسع لترابيزة السفرة وأنتريه جميل وسجادة عجمي اشتراها لنا أبي هدية بعد زواجنا. وبمجرد فتح باب الشقة يرى الزائر صورة معلقه على الجدران لجمال عبد الناصر يعتز بها سلامة يجاهد زوجي ويصعد إليها من وقت لأخر ومعه قطعة قماش لينفض عنها التراب.

تساءل زوج صفاء بمجرد دخوله عن صاحب هذه الصورة قبل أن يجلس. تجاهله سلامة. عاود السؤال كانت إجابة سلامة مهذبة "في حد ما يعرفش صاحب هذه الصورة؟" جلس زوج صفاء وبدأ الحديث حول الصور المفروض تعليقها على جدران المنازل.

صور الأقارب أو صور طبيعية لمناظر خلابة وأن مثل هذه الصورة يجب رفعها من على الحائط.

حديثه استفز سلامة. حاول قدر استطاعته ألا ينفعل رغم هجوم زوج صفاء على الصورة وصاحبها. سلامة يحاول أن يخرج من الحديث إلى أحاديث أخرى إلا أن الثاني كأنه جاء لهذه الصورة خصيصاً ولم يأت لزيارتنا. حاولت صفاء أن تقطع الحديث إلا أن زوجها أصيب بحالة غريبة وكأنه بينه وبين صاحب الصورة ثأر. خفف سلامة من مجرى الحديث، مشيراً إلى الصورة بأن "عبد الناصر بتاع الغلابة" وصوره ستظهر كثيراً عندما يضيق الوضع بالناس وتخنقهم البطالة والغلاء وأن

"فيه ناس هترفع صورته وهم لا يعرفونه و لم يعيشوا أيامــه" إلا أن زوج صفاء بتعال شديد نفض رماد سيجارته علـى الأرض وقال هذا كلام الاتحاد الاشتراكي سبب فقر مصر.

الجلوس على مائدة الطعام أنقذ الموقف إلا أن سلامة ظـل متوتراً. كنت أرغب في الجلوس على انفراد مع صفاء إلا أنـي خشيت من تركهما وحدهما. دخلت صفاء معي المطبخ لإعداد الشاي. سألتها عن أسباب تغير زوجها وكأنني فتحت بئراً من الأحزان والآلام. لا يأتي إلى المترل إلا قبـل الفجـر يـشرب ويسكر وإذا جلس في المترل، المكالمات التليفونيـة لا تنقطـع. نساء يحدثهن بالساعات. لا يذهب إلى المصنع إلا مرة واحـدة في الأسبوع وصحياً لم يعد على ما يرام. زيـارات للأطبـاء وأشعات وتحاليل ولا يبوح بما يعاني أو حقيقة مرضـه لكنـها صابرة "عشان الأولاد" بعد هذه الزيارة كانت أوامر سـلامة مجاهد واضحة. هي "أختك وأنـتِ أختـها... تزورينـها أو تزورك، لكن أنا مش عاوز أعرف الراجل ده".

عندما أخبرت أخي زكي بمتاعب صفاء وأحوال زوجها لم يعلق، إلا أنه عاد للدفاع عنه. كل مطالب البيـت متـوفرة. خصص لصفاء والأولاد سيارة بسائق. تحملـهم إلى المـدارس واكتفى بأنه "النصيب" وأن صفاء ذكية "ومش هتخرب بيتها بإيدها". وائل ومنى تسير هما الأمور الدراسية. مدارس غالية.

الولد دخل الجامعة الأمريكية وتخرج وأبوه ترك لـــه المـــصنع ليديره وصفاء تكيفت مع الوضع عاشت مع عبد الحليم حافظ والحجر القريب من ضفة النهر الذي تطل عليه من شرفة مترلها. كنت أحب عبد الحليم وأنا صغيرة وأحببته أكثر عندما كبرت حتى أن سلامة مجاهد زوجي كان يسخر مني عندما يـــسمعني أدندن ببعض أغانية.

دخلت البهجة مرة أخرى حياة صفاء عندما تقدم شـــاب لخطبة ابنتها. جاءت لتدعونا وهي في غاية الفرح. سألتها أنـــا وزكي عن الولد. قالت كان زميلها في الجامعة. حـــب أربـــع سنوات والحب الحقيقي يجب أن ينتهي بالزواج وسحابة حزن تمر على وجهها وتنظر من شرفة مترل العائلة في الفرنساوي إلى العمارة الضخمة التي شيدت أمام مترلنا.. عمارة محسن خطيبها السابق الذي عاد من السعودية بلحية ضخمة ودســـتة أولاد. كانت ترى في حب ابنتها امتداداً لقصتها. الفرحة عندما تراهما معاً أنستها حزن السنين وظنت أن الحب لم ينته مـــن العـــالم. خطوبة في فندق كبير على النيل إلا أن الحزن استكثر الفـــرح على صفاء وإذا بالبنت تعلن فجأة فسخ خطوبتها وتحاول صفاء أن تثنيها إلا أن "مقصوفة الرقبة" أصرت على موقفها.

طلبت منها صفاء أن تعطي لنفسها بعض الوقت للـــتفكير وأن تفكر في حبها الذي استمر طوال الدراسة. قذفت البنـــت بالحقيقة في وجه أمها. "الحب ده وهم" "كنا بنتسلى واحنا في

الجامعة" الحب شيء والزواج شيء أخر. لقد تعرفت على شاب في إحدى الحفلات يعمل بوزارة الخارجية. سكرتير ثالث في إحدى السفارات بالخارج. لم تحترم الدبلة التي في أصبعها ولم يبال هو بخطوبتها، فهي أبنة رجل ثري وهي ترى فيه ما لم تره في خطيبها. منصب. سيصبح سفيراً.

ستزور معه دول العالم وسقطت صفاء مرة أخرى والبنت مع خطيبها الجديد والولد يستعد للهجرة لأمريكا.

مسكينة أختي صفاء. نعم حالتها تحسنت. بدأت المشي والحركة إلا أن لسانها ما زال معقوداً. لم يقصر أحد منا مع صفاء لكن الهامات سالم أخي تلاحقنا بأننا السبب في مأساتها.

مصيبة صفاء لها فائدة واحدة وهي أنها جمعتنا. الأخوة يحضرون للمترل للاطمئنان عليها والاطمئنان على بعضهم البعض. تعرفنا من جديد على بعضنا وتقاربنا بعد بعاد. ولداي أحبا أخوالهما أكثر وأكثر. سالم يطلب من الأولاد ألا يناديه أحد باللواء وشريف يرفض كلمة سيادة المستشار. طلبوا من الأولاد أن ينادوهما بكلمة "خالي" حتى سامية كانت سعادتها غامرة عندما يناديها الأولاد بخالتي أو عمتي سامية وليس الدكتورة سامية. تعرفنا على زوجها الذي لم نجلس معه طوال فترة زواجها سوى ساعات. كانت تأتي مع سالم أخي زوجته. أحببناها كثيراً وسعد زوجي سلامة مجاهد بأهلي وحالة صفاء أصبحت لا تقلقنا فالكل أصبح على يقين بأن الله سيتم شفاءها أما مشكلة زوجها فالكل يدعو له بالهداية والاستقامة والصحة.

الدكتورة سامية

مصيبة صفاء جمعتنا بعد أن فرقتنا الأيام. أصبح يوم الجمعة لدى أسرتي عيداً. الدكتور سمير زوجي وابني وابنتي يستعدون من منتصف الأسبوع لزيارة بيت جدهم ورؤية خالتهم كل أسبوع. أصبح بيت الفرنساوي مثل المزار يأتي أفراد العائلة جميعاً يحكون ويتحاكون عن الماضي وأيامه ويتمنون شفاء صفاء ويرغبون أن تستمر الزيارة واللقاءات. الجلسة تطول بالساعات. يتسرب الشباب أولاً ويستمر الكبار لمنتصف الليل. الجلسة لا تخلو من الطرافة ويعلق الشباب أحياناً على أغنية عبد الحليم حافظ التي تدار بشكل دائم ولا أحد يرغب في إيقافها حتى لا يغضب خالته أو عمته صفاء. الأغنية تحولت إلى موسيقى تصويرية للقاء الدوري الأسبوعي. أصبح كل منا يتذوقها بطريقته.

هناك من يتوقف على مقطع الصبر وهناك من الشباب من يسخر من مقطع "منين نجيب الصبر يا أهل الله يداوينا .. أللي

إنكوى بالحب قبلينا يقول لينا" ويتغامزون عمـــن "إنكـــوى بالحب". الغريب أن صفاء اقتربت من أبنائي وأبنـــاء أخوتهـــا وكأنها تعوض نفسها عن جحود ولدها وابنتها. كانت تبتسم وتضحك وتنحني على الأبناء تقبلهم. تخلـــصت نهائيـــاً مـــن الكرسي المتحرك وجلست بيننا. تحتضن ابن أخيها هذا أو بنت أختها تلك. التحسن النفسي كان واضحاً عليها وأنا كطبيبـــة أعلم من الأشعات والتحاليل بأنها لا تعـــاني مـــن أي خلـــل فسيولوجياً وأن ما نحتاجه نحن الصبر وأنها قادرة على اجتيـــاز هذه الأزمة بوجودنا حولها. كل ما نحتاجه هو الصبر حتى وإن كان فقط قد انحصر في المواويل وأغاني عبد الحليم.

أنا عن نفسي لم أشعر بإحساس العائلة الكبيرة إلا مع مصيبة صفاء والتزامي بالحضور كل جمعه. صفاء رغم مرضها أعادت لي صحتي الأسرية التي تدهورت بعد وفاة أبي الحـــاج محمـــد الذكري. صفاء بصحتها ومرضها فجرت فينا ينابيع الحب من جديد. جعلتنا نشعر بأن الأسرة سياج يحمي من عوائل كثيرة. إعترف كل منا بذلك بطريقة مختلفة. أنا شخصياً كنت أميـــل للعزلة. كنت تلميذة مجتهدة من الأوائل في الابتدائية والإعدادية والثانوية. كنت اسهر لاستذكار الدروس وكنت غـــير كـــل الفتيات. لا أسمع مذياعاً أثناء المذاكرة ولم يكن لي صـــداقات ولم أهتم بأحاديث الفتيات وقصص الحب الحقيقية أو الوهمية.

التحقت بكلية طب القصر العيني وكما أطلقوا على أمي.. أم الضابط كانت بعض نسوة الحارة ينادونها بـأم الـدكتورة. كانت فرحة أبي أكبر وأحلامه الهادئة أوسع. يستيقظ ليلاً ليطمئن عليّ أثناء المذاكرة ويحثني على الانتهاء من دراستي ليبني شقة جديدة فوق المترل. دور ثالث. تنتقل إليه الأسرة ويخصص الدور الثاني عيادة لي، على أن أعالج الفقراء مجاناً، متعهداً أن يعطيني راتباً شهرياً مقابل ذلك.

كانت أمي رحمها الله تعد لي بعض السندوتشات قبل نومها حتى لا أشغل نفسي بشيء غير المذاكرة. توفي الحاج محمد الدكرني قبل تخرجي. شعرت باليتم وألمه وتشبثت بالصبر واكتويت بناره.

سنوات دراسة الطب قاسية. لا أجازات مثل بقية الكليات. دراسة متصلة لمدة ست سنوات تبعتها سنة امتياز أشد قسوة. دراسة الطب أضاعت أحلى سنوات عمري وعندما أنهت ابنتي الثانوية العامة وفكرت أن تلتحق بكلية الطب صرخت في وجهها. الطب ملعون، يقتل في الفتيات كل شيء جميل. إذا كانت ترغب في لقب دكتورة فكلية الصيدلة أقصر.. استجابت للنصيحة. تجربتي الشخصية كان الصبر فيها حتمياً. كنت أصبر وأصبر وتمر مرحلة لأدخل في مرحلة جديدة من مرارات الصبر. يبدو أن غرام صفاء بأغنية عبد الحليم ميراثاً

عائلياً. كل منا صبر مرغماً. سالم تنقل في محافظات مصر على أن يعود يوماً للقاهرة ويستقر بها. شريف مر على نيابات القطر إلى أن جاء إلى القاهرة. زينب سافرت وكل مرة نسمع صوتها في التليفون تؤكد أنها سترجع مصر ولن تسافر مـــرة أخـــرى. "ومنين نجيب الصبر يا أهل الله يداوينا".

صفاء ربما تكون أكثر واحدة "إنكوت بالحـــب" وصـــبرها نفد. تحتاج إلى إعادة شحن. شحنة جديدة من الحب والـــصبر ستعيدها كما كانت. طيبة أبي وتذكرنا دائماً له في أحاديثنـــا حولها تدخل عليها البهجة. كان دائم القـــول إن مـــن لديـــه "عيال" ويخشى عليهم، عليه بتقوى الله. كان تقيـــاً وتقـــواه وفرت لنا حماية من نوع فريد. يكفي حبنا لبعضنا وخوفنا على بعضنا. صفاء جمعتنا بعد أن فرقتنا الأيام. أتذكر الفراق وألمـــه وأشفق على صفاء واستشعر أنها ستنطق فجأة وسترمي فجـــأة خلف ظهرها كل من تسبب في إيلامها. حبها الأول لا أظـــن أنه سبب المشكلة الرئيسي. مشكلتها في زوجها.. في ابنها.. في ابنتها.. مشكلتها في الفراق والفراق درجات.. أحلاها مر.

أتذكر عندما فارقت الأهل لأول مرة بعد تخرجي وتكليفي في محافظة المنيا. ظللت أياماً أؤجل سفري. قالوا إن المنيا علـــى بعد أربع ساعات بالقطار. إذا اشتقت لهم أضـــع رجلـــي في القطار.. أغفو وأصحو في محطة مصر. سافرت. كان تـــوزيعي

إلى مدينة أبو قرقاص ومنها قالوا إلى الوحدة الصحية في قرية اتليدم "فركة كعب" خمس .. ست كيلو مترات من أبو قرقاص. ظللت شهراً لا أحدث أحداً. شهراً كاملاً أقرب لوضع صفاء. أحملق في الخلق. أسمع شكاوي المرضى وأكتب العلاج. ناس غلابة بسطاء. لا يثقون في الطبيبات، حتى النساء منهن يفضلن طبيباً أقدم مني في الوحدة الصحية ويرفضن أن أوقع الكشف عليهن أو حتى سماع أعراض ما يعانون. كنت أبكي عندما آوى إلى الفراش في سكن الطبيبات في الوحدة، ومن حسن حظي كنت الطبيبة الوحيدة ولدي حجرة خاصة لا يشاركني فيها أحد.

نحن أسرة فيما يبدو لا نتحمل أشكال الفراق. هذا الشعور داهم سالم أخي وشريف أيضاً. كانا يحكيان عن أيام عملهما الأول ويحكي سالم عن الأيام الأولى في كلية الشرطة وتنصت صفاء لنا باهتمام. عندما أراها منهمكة معنا بأذنيها أتوقع أن تنطق. أن تتدخل في الحديث فجأة وأرى أن ما نحتاجه نحن وما تحتاجه هي شيئاً من الصبر. مسألة شفائها مسألة وقت ليس أكثر وأتذكر صمتي في اتليدم. هذا الصمت الذي كسرة الطبيب الأقدم مني. طبيب خريج الدمرداش جامعة عين شمس. متوتر دائماً.. يدخن بشراهة. لا يتحدث كثيراً. استقبلني أول الأمر بترحاب ثم عاد لوضعه الطبيعي الصامت وعندما اصطدم الصامتان.. انكسر الحاجز. سمير مصطفى من المحلة الكبرى.

ليس المحلة نفسها. من قرية على الطريق بين طنطا والمحلة الكبرى القرية اسمها صفط تراب. سمير أصبح زوجي. كسر الصمت ودخلنا في معركة طويلة مع الصبر.

كنت أنزل القاهرة مرة كل أول شهر.. ثم مرة كل شهرين.. ثم مرة كل ثلاثة شهور وكلما اقترب مني سمير ذاب إحساسي بمرارة الفراق.. فراق الأهل والإخوة والأهم فراق منطقة الفرنساوي التي لا أستطيع تخيلها دون وجود أخي زكي. تغير الظروف يفرض سلوكيات جديدة وينمي شعوراً مغايراً. بدأت الاهتمام بنفسي بعض الشيء. ذهبت لأول مرة إلى الكوافير في إحدى الأجازات سألني ماذا أريد أن أفعل في شعري. لا أعرف ماذا يفعل البنات أو السيدات في شعرهن طلبت منه بحرج شديد أن يختار لي قصة تناسب وجهي. عندما انتهى. لم أكن سامية أو الدكتورة سامية التي أعرفها. شكل جديد ووضع جديد.

عندما شاهدني زكي داعبني، ذكرني بأيام الدراسة والضفيرة الصغيرة أو الكعكة التي كانت تتربع على رأسي. كعادته اختتم مداعباته بأن الدراسة "خلصت" والشهادة حصلت عليها والعمل التحقت به ولا ينقصني إلا عريس ابن حلال. خشيت أن أفاتحه في موضوع الدكتور سمير خاصة وأنه لم يعلن بشكل واضح رغبته في الارتباط بي. زكي غير مديحة. كنت أحكي في

الأجازات لمديحة كل شيء. كانت فكرة ارتباطي بدكتور في الصعيد تؤلمها تخاف أن أصبح مثل أختي زينب التي أختفت في غياهب الخليج.

حكيت لصفاء أمام أخوتي وأبنائي وأمام زوجي كيف بدأت القصة. كنت لا أعرف ماذا أفعل وكيف أجذبه إلى. لم أكن صاحبة تجارب سابقة بالممارسة أو حتى الاستماع. طوال حياتي لم أسمع حكايات البنات لكنني بدأت أراقبه. لكل منا عيادة كشف منفصلة في الوحدة الصحية. أنا ممارس عام وهو كذلك إلا أنه أخذ الخطوة الأولى في الدراسات العليا. سجل في دبلوم الأمراض الجلدية. لم يكن بيننا تنافس إلا أن حب أهل القرية الشديد له آثار غيرتي. هذه القصص كانت تسلي صفاء أحيانا وتثير في أحيان أخرى مواجعها.

بعد انتهاء الدوام أذهب للسكن داخل الوحدة الصحية. أطل من نافذة على مدخل الوحدة. قطعة أرض مزروعة بجيل ليس بالأخضر ولا الأصفر. قطعة أرض كأنها مصابة بمرض جلدي. تعبيرات الدكتور سمير. في منتصفها جزء أجرب كأنه ثعلبة. مرض يصيب فروة الرأس ويتسبب في سقوط الشعر. في هذا الجزء يضع سمير كرسياً خشبياً ومنضدة صغيرة عليها بعض الكتب الطبية والجرائد. يقرأ ويدخن ولا يتحرك من مكانه إلا عندما يهبط الليل أو يأتي أحد أهالي القرية لاستدعائه لزيارة مترله.

لا أعرف المدة التي استغرقتها في متابعته و لم يفطن هـــو إلى مراقبتي له. جاء أحد رجال القرية لاستدعائه. طلب من أحـــد الخفراء أن ينادي عليّ من سكن الطبيبات. سمعته يقول "صرّخ على الدكتورة سامية" عرفت أن الصراخ يعني المناداة. بـــأدب جم طلب مني أن أذهب معه لزيارة مريضة .. خرجنا ســـوياً. السيدة تعاني من نزيف حاد. طلب من أهلها أن ينقلوهـــا إلى المستشفى المركزي في أبو قرقاص على وجه السرعة. أنـــشغل أهلها بنقلها وعدنا سوياً إلى الوحدة الصحية. قطعنـــا نـــصف الطريق و لم ينطق كلمة واحدة. كنت أنتظـــر أن يـــتكلم، أن يتحدث في أي شيء. تمسكت بالصبر والصمت وإذا به يقـــدم لي نفسه مرة ثانية بطريقة مختلفة عن الأولى.

الدكتور سمير مصطفى ابن الحاج مصطفى العامل المثالي في مصنع الغزل والنسيج بالمحلة. سافر للحج على نفقة الـــشركة. الأخ الأكبر لأربع أخوات. جميعهم متفوقون في المدارس. يبدو أن كلية الطب ستكون مثواهم. أهل المحلة ومن حولها يعملون في صناعات النسيج. أغلب العمال مصابون بـــالربو والأبنـــاء المتفوقون يدخلون كلية الطب لمعالجة أهاليهم. يا صبر أيـــوب. نطق أخيراً. أعلن عن رغبته في التقدم لي ونحن نقتـــرب مـــن أعتاب الوحدة الصحية. ألتفت حولي كنت أظن أن هناك مـــن يسمعنا. طلب مني أن أمنح نفسي وقتاً للـــتفكير قبـــل اتخـــاذ القرار.

لم أنم ليلتها. العنبر على اتساعه أشعر به يضيق، يكاد يخنقني في ليلة شتوية أتصبب عرقاً. ارتفعت درجة حرارتي. أتذكر كل التفاصيل رغم مرور كل هذه السنوات. أحكي وتستمع صفاء وتحتل الابتسامة وجهها كله. الأولاد انصرفوا إلى البلكونـــة. يبدو أنهم لا يهتمون بسماع مثل هذه الحواديت. جيل غريب. مديحة تلعن الحب وسنينه. الكل يشارك ويلقي النكت إلا أخي شريف، يبدو أن جلوسه على المنصة كقاضٍ جعلـــه مـــدمن للاستماع لا المشاركة.

زكي يحمد الله أنه لم يمر بتجربة حب ولم يـــسقط في بئـــر الزواج. حبه الوحيد المدبغة. يحكي زكي عندما جئت القاهرة في أجازة وأخبرته بأن طبيباً زميلاً يرغب في التقدم للزواج مني. سألني هل وافقت. أخبرته بأنه أمهلني وقتاً للتفكير. نصحني بأن أعلن موافقتي له فوراً إذا كان مناسباً وطيباً. لم يـــسألني عـــن أصله وفصله أو فقرة وثرائه. ركز على أهمية أن يكـــون طيبـــاً ومتواضعاً.

الدكتور سمير كان خجولاً وما زال. أحمر وجهه وينظر إلى من وقت لأخر وكأنه يطلب مني الكف عن هذا الحديث. إلا أنني وجدت أن مثل هذه القصص مسلية لصفاء. نحن جميعاً هنا في الفرنساوي من أجلها والترفيه عنها وانتشالها من أزمتـــها. صفاء ترغب في سماع القصة التي أرويها لأول مرة. عدت مـــن

الأجازة و لم يسألني الدكتور سمير عن رأيي أو موافقتي. تركني أياماً لا حديث إلا في العمل وكأنه لم يعرض عليّ الـزواج أو أنه فاتحني في الموضوع. فاتحته أنا ساعة عـصرية في حديقتـه الجرباء التي يجلس فيها.

خشيت أن أقول له إن لي أخاً ضابطاً وأخر وكيل نيابة وهو الذي قدم لي نفسه بأنه ابن ناس بسطاء. قلت له إننا من منيل الروضة والأساس من مصر عتيقة بمنطقة الفرنساوي وأن والدي صاحب مدبغة ويديرها أخي زكي وأنني موافقة على عرضـه. طلب العنوان ورقم تليفون زكي. قابل زكي في أول أجازة له في القاهرة. كانت المشكلة في صعوبة أن ننزل نحن الاثنان سوياً إلى القاهرة ونترك الوحدة الصحية بلا طبيب. خاصة وأن مدير الوحدة من الممكن أن ينقل أحدنا إذا علم بموضوع الخطوبـة والزواج.

طلب الدكتور سمير مهلة تقترب من العام يكون خلالها قد أنهى فترة العمل في الصعيد. النظام في ذلك الوقت أن الأطبـاء الجدد يعينون في الوحدات الريفية في القرى لمدة عام ثم ينقلون إلى المراكز للعمل لمدة عام أخر. ولا يسمح بتقديم طلبات نقل إلا لمن أمضى ثلاثة أعوام على الأقل ليتم نقله مـن المحافظـة بأسرها إلى مسقط رأسه أو أي محافظة يريدها. كانت الوساطة في تلك الأيام في أضيق الحدود.

لم أكن من مستمعي عبد الحليم حافظ أو غيره و لم أعرفه أو أحبه إلا من خلال صفاء التي قلبت علينا كل الماضي بأفراحه وأحزانه و لم أسمع عن الصبر إلا في المواويل وعشت الصبر بدرجاته مع الدكتور سمير. انتهت الفترة المحددة وتم نقل الدكتور سمير إلى القاهرة وجاء بعائلته لقراءة الفاتحة. أمي فرحت به. لم يكن لسمير أو أسرته شروط أو طلبات. تجهيز الشقة مشاركة وبدأ البحث عن شقة. في وادي حوف بحلوان كان عش الزوجية. هو يعمل في مستشفى الحوض المرصود ويستكمل دراسته العليا في الأمراض الجلدية وأنا أعمل في مستشفى النصر بحلوان. المترو وسيلتنا في الانتقال. سواء للعمل أو زيارة مديحة في الفرنساوي أو الأسرة في منيل الروضة.

تسير الأمور بهدوء وعلى وتيرة واحدة. لم يتغير شيء في الدكتور سمير. كل يوم يعود بمجموعة من الكتب والمذكرات الطبية وكومة من الجرائد. كان اهتمامه بالدبلوم أكثر من اهتمامه بتأخير الحمل. كان يرى أن دراسة الأمراض الجلدية أهم من غيرها، فأغلبها وأخطرها لا يصيب إلا الفقراء غير القادرين على العلاج ويستغرق التعامل معها فترات طويلة وتحتاج صبراً. صبرت على دراسته وصبرت على تأخر الحمل بعد أن تأكدنا من عدم وجود موانع صحية. صبرت على توتره الدائم وتدخينه المكثف المستمر، إلا أن أتى يوم لم أحتمل فيه الصبر. لم يعد للمنزل ليلة.. ليلتان.. بحثنا عنه في كل مكان.

ظننت في بداية الأمر أن يكون أصيب في المظاهرات. اتصلنا بسالم في كفر الشيخ وبشريف. البلد مقلوبة. مظاهرات استمرت يومين في ١٨ و١٩ يناير والجيش نزل الشوارع وزكي طلب مني أن أحضر للإقامة في الفرنساوي أو في المنيل إلى أن تتضح الأمور.

ألقي القبض على الدكتور سمير بتهمة التحريض هو وآخرون وظل محجوزاً على ذمة القضية. زكي كان عاقلاً.. لا داعي لتوريط سالم أو شريف حتى لا يضارا في وظائفهما. وكل زكي محامياً.. قال له الدكتور سمير لا داع، فهناك مجموعة من المحامين. تعهد زكي بالموضوع. يصحبني في زيارته ويوفر له كل ما يحتاجه في السجن من سجائر وخلافه. مصيبة لم يخبرنا من قبل الدكتور سمير بأن له نشاطاً سياسياً. كان ينتقد بعض السياسات. صبرت وبرأت المحكمة سمير وغيره وأخذت بنصيحة زكي أن نبتعد عن سالم وشريف. حصل على الدبلوم. أخذ أجازة بدون مرتب. سافرنا سوياً إلى ليبيا. عدنا بولد وبنت واستأجر شقة في زهراء مصر القديمة.. عيادة.. وظللنا في وادي حوف.

لم أفاتحه في موضوع السياسة وتورطه فيها وأننا أصبحنا أصحاب عيال. فاتحني هو ذات مرة. لم ينضم من قبل لأية تنظيمات سياسية. حكومية أو معارضة. تظاهر مع الطلبة عام ١٩٧١ و١٩٧٢. خرج الطلبة من جامعة القاهرة وعين شمس والأزهر. زحفوا إلى ميدان التحرير كانوا يطالبون بالحرب

وإنهاء موقف اللا سلم واللا حرب. هذا هو كل تاريخه السياسي، لماذا قبضوا عليه عام ٧٧ الإجابة عند سالم أخي. الشرطة لا تجدد ملفاتها. من يشارك مرة في مظاهرة يكون عرضة للقبض عليه مرات. سنوات الغربة في ليبيا أنست الشرطة طريقه.

بعدنا عن الأسرة سنوات واتهام سالم أخي بأننا شاركنا في مصيبة صفاء لا أساس له وإن كانت سهولة عملية زواجي أثرت على أمي بطريقة أو أخرى. بنت أخرى تتزوج من طبيب. أنا طبيبة وسمير هو الذي ظهر أمامي، إلا أن أمي كانت ترى الصورة بشكل أخر. ليس مجرد رفضها للفرنساوي وأهله التي جعلتها تضغط على صفاء لفسخ خطوبتها على جارنا محسن. كان وضعه هو السبب. موظف في جمعية تعاونية. لو كان طبيباً أو ضابطاً أو صاحب حيثية- كما كانت تقول- حتى لو من حوش عيسى أو حوش بردق لقبلته زوجا لإبنتها.

أمي التي خرجت من مصر عتيقة لا ترغب في العودة إليها حتى لو بالذكر. أمي التي انتقلت إلى الروضة. كونت شبكة علاقات. استطاعت أن تتعرف على ناس غير الناس التي كانت تعرفهم. هي التي زوجت سالم ابنه أستاذ الجامعة وخطبت لشريف ابنه قاض. لم تفكر بطريقة صفاء. الحب في رأيها كلام فارغ و لم يدفع الثمن سوى صفاء. دفعت ثمناً مضاعفاً. فقدانها لحبيبها وفقدانها لإبنها وابنتها. أصبح كل ما يربطها بهما خطابات غير منتظمة وأمل في لقاءات قد لا تتحقق.

المستشار شريف

لكل حادث ظروفه وكل قضية لها ملابساتها وقبل إصدار الأحكام لابد من التمعن في الوقائع لاستخراج الأدلة والبراهين حتى تصبح الأحكام قائمة على سند ولا يشوبها عوار، الأصل في القانون هو أن المتهم أخر من يتكلم في القضية حتى يتسنى له الدفاع عن نفسه بعد تقديم جميع الأدلة. أحكام سالم أخي بإدانتنا جميعاً في موضوع صفاء لا محل له ولا أساس. حكم غير موضوعي يعكس أزمة سالم النفسية والشخصية وإن كنت لا أستطيع مواجهته أو إحراجه ورب ضارة نافعة.

حالة صفاء الصحية في تحسن وحالتها النفسية في أحسن وضع وتجمعنا حولها عوضها الكثير. عوضها عن اليتم المبكر وقسوة الأم إذا قيمنا سلوك الوالدة على أنه قسوة كما عوضها

عن جحود الأبناء وانصراف الزوج وقبلهم جميعاً مرارة التجربة وفراقها لمحسن أو مفارقته لها وسفره المفاجئ.

جلسة يوم الجمعة تحولت إلى ما يسمى بجلسات العلاج النفسي الجماعي. كل من يرغب في قول شيء يقوله. يقول كل منهم ما يريده ويبدو أن زكي أخي منذ الاجتماع الأول وضع قاعدة "الزعل مرفوع" ولم يغضب أحد. كنت أفضل الاستماع في الجلسات الأولى. أسمع كلا منهم واقتصر قدر المستطاع حتى في التعليقات، إلا أن التهم الموجهة إليّ ليست بالبسيطة أو الهينة ولم تقتصر فقط على تحملي جزءاً من مشكلة صفاء لكنها بدأت تصيب العظام. تهم من كل حدب ومن كل صوب. الوحيدة التي لم تشارك في اتهامي هي صفاء، فهي لم تنطق بعد .

هي في حقيقة أمرها انتقادات لكنها موجعة، لم يسلم منها أحد. انتقادات أحيانا صريحة واضحة وأحياناً أخرى مبطنة مغلفة. طالت أبي وأمي وطالتنا جميعاً. بعضهم مثل سالم أخي رضي بنصيبه من الانتقادات لشعوره بأنه شارك في أزمة صفاء واعتراف مديحة بالذنب وقيامها بخدمة صفاء جعلها تعتقد بأنها أدت ما عليها ولا أحد يستطيع لومها أو توجيه أي نوع من العتاب لها ورغم ذلك كله أصبحت جلسة يوم الجمعة جلستين.

جلسة خاصة بنا نحن الأخوة في عدم حضور الأزواج أو الزوجات تتسم أحياناً بقسوة الهجوم ومراجعة المواقف والحديث عن الماضي بجماله وقبحه، وجلسة أخرى عندما تحضرها الزوجات أو الأزواج والأبناء تتحول إلى جلسة "بروتوكولية" لا نبش فيها لماض ولا نتحدث عما فات ومن فعل كذا ومن لم يفعل ومن ابتعد عن الأسرة وهرب من أفرادها ومن اختار لنفسه طريقاً غير طريق أبي محمد الذكري. الذكري الذي كان لكل الناس.

الذكري الذي كان يمد يده لكل ملهوف ويساعد كل محتاج ويأخذ بيد الصغير حتى يكبر. مقارنة زكي الدائمة بين أبي وأمي تثير في حلقي غصة إلا أن موافقة أخواتي وأخي سالم على ما يقول تجعلني أتردد في الرد عليه أو حتى مناقشته.

تقسيمه زكي لنا مرفوضة جملة وتفصيلاً، فهو يحب إن يقول أن سالم ومديحة وصفاء ورثوا كل صفات الحاج محمد الذكري بينما أنا وأختي زينب "الخالق الناطق" أمنا ويدلل عن ذلك بأن زينب في مصر منذ عدة شهور هي وأسرتها وأنهم عادوا نهائياً إلى مصر وتعلم بموضوع صفاء ولم تفكر في زيارتها وتكتفي بالاتصال تليفونيا لتعد بزيارة يوم جمعة إلا أنها لا تف بوعودها. هناك فرق واضح بالفعل بين أبي وأمي رحمهما الله، إلا أنه لا يرقى إلى الأضداد ولا يمكن النظر إليه بنظرة أحادية،

أبي كان يتمتع بالعديد من الصفات الطيبة وأمي كـــذلك. لم يكن أبي الخير كله و لم تكن أمي الشر بكامل هيئته.

طموحات أبي كانت طموحات مهنية بحتـــة. يرغـــب في توسيع نشاطه. عقله وفكره لم يخرج من المدبغة. كد وعمـــل وادخر واشتري مدبغة. في إطار التطوير استورد ماكينات مـــن الخارج. كان يفكر ويبحث عن شريك ليحول جـــزءاً مـــن نشاطه في دباغة الجلود إلى تصنيعها أحذية وحقائـــب. كـــان يبحث عن مصدر لتصدير هذه المنتجات. كان يـــسمع عـــن الأرباح الهائلة التي حققها زملاء له في المهنة بدأوا معه صـــبياناً في المدابغ وأصبحوا من أصحاب الملايين والعمـــارات. ظـــل يبحث ويفكر ووافته المنية و لم يحقق حلمه.

أمي كانت شيئاً مختلفـــاً. طموحهـــا طمـــوح اجتمـــاعي وتفكيرها ليس بعمق تفكير أبي إلا أن الفكرة تنتقـــل عنـــدها سريعاً إلى التروع والتنفيذ مهما كلفها الأمر. قررت الخـــروج من خارطة أبو السعود فخرجت. كان أبي يـــدخر معهـــا أو كانت تدخر له نقوده. هو يفكر في شراء مدبغة ويبحث وهي فكرت وبحثت ووجدت مترلاً معروضـــاً للبيـــع في منطقـــة الفرنساوي وأجبرته على شرائه وكان ما كان بينهما.

هو يحصى ما معه من أموال وهي تنظر إلى ما لـــديها مـــن أولاد. عندما جئنا إلى الفرنساوي كانت حريـــصة علـــى أن نكون أفضل أطفال المنطقة. كان أبي لا يبخل علينـــا بـــشيء.

أفضل ملابس وأفضل طعام وبعد فترة تحول منزلنا إلى قبلة لنساء المنطقة وأطفالها. عندما تأخذني "الجلالة" في الحديث عن أبي وأمي تنهمر الدموع من عيون صفاء وأحيانا من عيون مديحة وكنت أشعر بأن هذه الدموع تغسل قلبيهما.

زكي الوحيد الذي لا يطيق حديثي عن أمي وعندما أتحدث عن الحاج محمد الدكرني تلمع عيناه من الدمع ويترحم عليه بلسان صدق. حدثتهم عن أمي عندما طلبت من أبي أن يشتري لنا جهاز تليفزيون. رفض بشدة متعللاً أنه سيشغل الأولاد عن المذاكرة وسأل هل أحد في المنطقة لديه تليفزيون. أجابت أمي بالنفي وأردفت أنها ترغب في أن يكون أول تليفزيون دخل الفرنساوي اشتراه محمد الدكرني. أخبرته بأنها وفرت من مصروف البيت ما يمكنها من شراء الجهاز وفي اليوم التالي جاء التليفزيون.

أمي بنت البسطاء كانت ترغب في التميز. تميزت عن أهلها عندما غادرت حارطة أبو السعود وجئنا إلى الفرنساوي. تميزت عن نساء شارع ساعي البحر عندما أصبحنا أول من أمتلك جهاز تليفزيون في المنطقة. التليفزيون نافذقا الوحيدة على العالم الجديد. يفتح في اليوم مرتين. في الصباح لمشاهدة برامج للأسرة وإعداد الأطعمة. كانت تكتب المقادير التي تذكرها مقدمة البرنامج في كراسة صغيرة. كيفية صناعة الباباز. مقادير إعداد كيكة الشوكولاته وغيرها من الأكلات والعصر تصنع

بنفسها لنا بعض الحلويات التي عرفناها لأول مرة. في المساء التليفزيون مشاعٌ لأهل الحي من النساء والأطفال. يوضع في أمسيات الربيع والصيف فوق سطح المترل وتجلس النسوة والأطفال لمتابعة المسلسلات.

شاهدت وما زلت أذكر مسلسلات "هارب من الأيام" لثروت أباظة و"الساقية والرحيل" وعرفت عندما كبرت أهما في الأصل روايتان للصحفي والأديب عبد المنعم الصاوي الذي أصبح فيما بعد وزيراً للثقافة والإعلام. التليفزيون الذي حاربت أمي من أجله أصبح تسلية الأسرة الوحيدة. شاهدنا مسلسلات أجنبية مثل "الهارب" وعرفنا الممثل الأمريكي ريتشارد كمبل. تابعنا مباريات كأس العالم. طموح أمي كان اجتماعياً. ترغب في ترقي سلم جديد في فترة الستينيات. هذا السلم سمح لها ولنا بالصعود نحن أبناء البسطاء. كنا من آحاد الناس وأصبحنا ضمن النخبة الاجتماعية إذا كان هناك نخب اجتماعية في مصر.

لا أستطيع التحدث عن أمي وموقفها من خطوبة صفاء الأولى وفسخها أثناء وجود صفاء بيننا. أتحدث في هذه النقطة تحديداً عندما تغادر صفاء الصالة التي نجلس فيها وإذا عادت أغير دفة الحديث. رغبة أمي في الصعود ربما تكون الدافع والمحرك لموقفها ضد محسن جارنا. موظف الجمعية

الاستهلاكية. لم تعترض على حالتة الاجتماعية أو الشخصية لكنها كانت تحارب كيلا تسقط منها صفاء أثناء صعود الأسرة كلها في السلم الاجتماعي الجديد. طلبت منه أن يستقيل من وظيفته ويسافر إلى الخليج أو ليبيا مثلما فعل العديد من الشباب.

اكتشفت إصراره على أن يظل في شارع ساعي البحر وألا يغادر مصر عتيقة في الوقت الذي كان الناس كلهم يحاولون عبور النهر والبحر والجو لتحسين أوضاعهم والانتقال من درجة إلى أخرى.

أنا لم أشارك في أزمة صفاء. كنت أرقب الوضع ولا أشارك حتى بالرأي، فأنا أعلم عناد أمي. عنادها مع نفسها. عنادها مع أبي. عندما حاولت أن تدفعني للذهاب إلى محسن وأطلب منه فسخ الخطبة، رفضت لعلمي بتمسك صفاء به وعندما بدأ الناس في الفرنساوي بعد فسخ الخطوبة يتحدثون ويخوضون في أمورنا العائلية والشخصية كنت أسمع ولا أبالي، فهي وإن كانت ترفض محسن وبشدة إلا أنها رحبت بالدكتور سمير كزوج لأختي سامية. لا خلاف بين محسن وسمير من حيث الوضعية الاجتماعية أو الاقتصادية، إلا أن الفرق بين طموح الدكتور سمير واستكانة محسن وسعادته بالوظيفة البسيطة، جعلها تشعر بأن صفاء ستكون أقل بناتها حظاً. عملت المستحيل ونجحت دون النظر في العواقب.

صمت صفاء المطبق أجبرنا جميعاً على الحديث والتفكير بصوت عال ومراجعة المواقف والتدقيق في الوقائع. ما فعلته أمي في الفرنساوي أعادت ممارسته في الروضة بشكل يناسب المكان الجديد والوضع الجديد. شقة خمس حجرات.. بمدخل خاص.. دور أرضي وحديقة صغيرة لا تتجاوز عشرة أمتار مربعة وبإيجار لم يكن رخيصاً. تسعة جنيهات في الشهر. لم نأخذ معنا شيئاً من أثاث مترل الفرنساوي.

أثثت هي الشقة بمساعدة سالم الذي تخرج والدكتورة سامية التي تخرجت بعده. نجحت في تجهيز قعدة جميلة من الكراسي الخيزران في المدخل وكانت مزاراً لنساء الروضة وهوانمها. أسرت النساء باهتمامها بأولادها ومترلها وكان أبي لا يأتي إلا لماماً. عندما تخرجت وكنت من الأوائل والتحقت بالنيابة دون وساطة أو خلافة. كانت ترى أننا ثروتها والتي يجب أن تعمل على تنميتها. ذكاء فطري كان يمتلكه أبناء الطبقة ما دون الوسطى عندما كان لهم هدف محدد.

قلبت أمي صفحة مصر عتيقة والفرنساوي وخارطة أبو السعود وبدأت رحلة البحث عن زوجة لسالم وزوجة لي. لم تفكر في بنات أثرياء المدابغ الذين عبروا النهر واشتروا في الروضة والمنيل عمارات وعقارات. أثرياء المدابغ كلهم من مصر عتيقة والجيارة وخارطة أبو السعود وعين الصيرة تلك

الأحياء البائسة في نظرها. كانت تبحث لنا عن بنـات كبـار الموظفين من أهل الروضة والمنيل. قالتها ذات مرة بحثت لكـم عن بنات من أبناء الأصول.

ورغم أنها لم توفق في قضية صفاء من أولها لأخرها إلا أنها نجحت في اختيار زوجتين صالحتين لي ولأخي سالم. السيرة الطيبة ومراكزنا الاجتماعية كانت مؤهلات الترحيب بنا.

اتسعت دائرة معارفها وجاءت صديقاتها الجـدد بعـريس لصفاء. أكدت عليها أن تخبرهن بأنها سبق خطبتـها حـتى لا ندلس على أحد. جلست أنا مع العريس. تحـدثنا في أمـور كثيرة. دخلت صفاء قدمت القهوة وخرجت. أخبرته أنه سبق خطبتها وكأنه لم يسمع ولم يبال. يبدو أنه يبحث عما كانت أمي تبحث لنا عنه وإن اختلفت الأهداف. بـدأ الـشكر في المراكز المرموقة وأهميتها في علاقات النسب. بحكـم خـبرتي البسيطة في ذلك الوقت فهمت غرضه. العريس ينتمي لأسـرة ثرية وتبحث في النسب. عن أشياء أخرى غير الـتي تعرفهـا الطبقة الوسطى وما دون. حديثه وحديث والده عن التأميمات ومصادرة الأموال ثم رفع الحراسات جعل الأغنيـاء القـدامى يبحثون عن سلطة ومناصب يعتقدون أنها تـوفر لهـم بعـض الحماية. كانت فرحة العريس وأبيه بي وبأخي سـالم تفـوق فرحتهم بالعروس. احتفال مبالغ فيه ظهر في حفل الزفاف أثناء تقديمنا للمعازيم. هدايا دون مناسبة يقدمها العـريس ووالـده يصعب علينا مجاراتهم فيها. عرض بالوساطة لنقل أخي سالم من

كفر الشيخ إلى القاهرة إلا أنه رفض بسأدب منتظراً دوره في النقل مثل بقية زملائه. استمر الحال فترة إلى أن اكتشفوا أننا ليس لنا في التسهيلات أو التشهيلات. وظلت العلاقة في إطار النسب وحده ولا شيء غيره.

زياراتي لصفاء لم تنقطع وسالم لم يقصر وإن كانت لم تخرج عن اهتمامات الطبقة الوسطى. في المناسبات الدينية والأعياد يصلها نصيبها لحوم أو حلويات. زكي كان يزورها بانتظام يسبقه أحد عمال المدبغة يحمل لها ما تعارفنا على تقديمه في تلك المناسبات. لم ابتعد أبداً عن صفاء. كنت أشعر بأنها ليست سعيده رغم تظاهرها بالسعادة. كنت أحس أن تجربة محسن لم تشف منها إلا أنني لم أستطع مفاتحتها في شيء. كانت مديحة هي الجسر. النساء يفهمن بعضهن إلا أنها كانت تطمئننا بأن الأمور على ما يرام. لم ابتعد عن أسرتي طوال حياتي كما يتهمني زكي.

مشكلته أنه لا يتفهم طبيعة عملي وما أستطيع فعله وما أحاول أن أتجنب التورط فيه، كل خطواتي محسوبة عليّ. القاضي يجب ألا يختلط بالناس كثيراً ولا يجامل بطريقة تنال من هيبته ومكانة الهيئة القضائية ككل. يجب أن يكون رقيباً على نفسه ورقابته تلك تفهم في الوسط الأسري على أنها تعال أو انها محاولة انسلاخ من الروابط الاجتماعية.

لم أهرب عامداً متعمداً إلا من زكي و لم ابتعد عن أي فرد من الأسرة غيره. زكي علاقاته واسعة متشعبة غريبة. يخلط بين الأخوة والشهامة و"جدعنة" أهل البلد وله كامـــل الحريـــة في علاقاته إلا أنه ليس حراً في فرض هذه العلاقات عمن ســـواه. عندما انتقلت إلى القاهرة، إعتقد زكي أنه المفروض أن ألبي كل طلباته وإن كان بعضها يخرج عن أعراف الوظيفة. كـــل مـــن لديه مشكلة مع قسم الشرطة أو النيابة أو حتى المرافق يـــسحبه من يده ويأتي به إلى المترل.

لا يطلب استشارة لكنه يطلب تدخلاً شخصياً مـــني لحـــل المشكلة أو أن أذهب معه ومع صديقه إلى من لديه العقد والحل في المشكلة المعروضة. عندما كنت أعتذر له بشتى الطرق كان يخفض سقف مطالبه وبدلاً من الذهاب معه يطلـــب بطاقـــة توصية. مثل هذه الأمور لا أورط نفسي فيهـــا، خاصـــة وإن مشاكل أصدقائه ومعارفه تتنوع من تعـــاطي المخـــدرات إلى قضايا تموينية أو قضايا إشغال طرق. زكي لا يمـــل ولا يكـــل أرفض طلباً يأتي بطلبات أخرى. كان التهرب من مقابلته هـــو السبيل الوحيد وإن كنت أقوم بزيارته من وقـــت لأخـــر في المدبغة.

زكي يحركه "العشم" وهو لا يعلم أن هذا قـــد يـــسيء لي شخصياً ووظيفياً. زكي هو الذي روج بين أفراد الأسرة أنـــني ابتعدت عنهم وعندما ألقي القبض على الـــدكتور سمـــير زوج

أختي ساميه نصحها بعدم الذهاب إلي لأنني لـــن أخـــدمها ولا أخدم أحداً وإن كان قد حاول تغليف نـــصيحته لهـــا بعـــدم توريطي في أمر قد يسبب لي مشاكل في العمل.

في جلسة خلت من الأزواج والزوجات والأبناء، قـــررت فتح موضوع الدكتور سمير وإشراك صفاء في الحديث.. أقصد في السماع. ذكرها بيوم جئت إلى الروضة وأخذها مباشرة إلى مترل الدكتورة سامية في حلوان. كان زكي قد أخـــبرني بـــأن الدكتور سمير قد ألقي القبض عليه وذهب رجال المباحـــث إلى مترله لتفتيشه في حضور سامية. لم أتوان لحظة، أخذت صـــفاء معي إلى حلوان لطمأنة سامية من ناحية وإقناعها بـــالمجيء إلى الروضه أو إلى الفرنساوي حتى تنتهي أزمة زوجها .

كنت أعلم أنها لن تترك الشقة ابداً ولذا كانت صفاء معي . قررت البديل إن لم تغادر الشقة تقيم معها صـــفاء . تـــستمع صفاء وتهز رأسها تصديقاً لكلامي . كنت أرغب أن يستقر في وجدانهم أنني لم اتخل عن أحد من الأســـرة أبـــداً وأن محمـــد الدكرني الذي ربى وعلم ووضع في صـــدورنا بـــذور الحـــب والأخوة المتمثلة في حب زكي لنا وحبنا له . هذه البـــذور لا تثمر شوكاً مهما كانت الظروف .

أكدت الدكتورة سامية أقوالي وأفعـــالي وأدرك زكـــي أن الكلام موجه له . تركت سامية تحكي عن " الأيام الـــسوداء "

كما تفضل أن تسميها وجريها وراء سمير من تحقيق لآخر ومن سجن إلى أخر ، تاركة لي فرصة لأتذكر تلك الأحداث وكأنها حدثت بالأمس القريب . هذه القضية — انتفاضة يناير ١٩٧٧ — حفرت في وجداني مفاهيم جديدة وعملية للعدالة والتحقيق والدفاع وعمل النيابة . أتذكر كوكبة هيئة الدفاع أو بعضاً منهم على الأقل .. الدكتور عصمت سيف الدولة والمستشار ممتاز نصار وأحمد نبيل الهلالي والدكتور يحى الجمل وعبدالله الزغبي وصبرى مبدى . كان أصغر المحامين سناً عصام الاسلامبولي وسامح عاشور الذي أصبح فيما بعد نقيباً للمحامين .

سامية تحكي عن الدكتور سمير بأنه كان غريباً في تصرفاته ، أقرب إلى البلادة . لا يكترث بالجلسات بل يعتبر الخروج من محبسه إلى النيابة أو المحكمة فرصة للقائنا . يدخن بهدوء لم تعهده فيه . يتبادل النكات أحياناً وهو لم يفعله طوال حياته . خليط من المحبوسين بعضهم لم يشارك أساساً في المظاهرات والبعض الأخر تعود على الحبس . كان يحكي عن زميل له يعتبر فترة الحبس نقاهة واستجماماً . طلبة جامعة وعمال وموظفون ، بعضهم بالفعل ليس له علاقة من قريب أو بعيد بالسياسة . جاءت رجله بالصدفة أو تصادف وجوده في مكان المظاهرات . الدكتورة سامية تقهقه عندما تتذكر القصص التي رواها الدكتور سمير بعد براءته من القضية .

الحقيقة أن ضبط الدكتور سمير والتحريات الـــتي أُجريـــت كانت كلها معيبة من الناحية الشكلية والإجرائية كما لم يُعثر في مترله على أية مضبوطات . خرج من كلية طب الـــدمرداش بعد أن أنهى امتحانه في دبلوم الأمراض الجلدية . طبقاً لأقوالـــه في النيابة . كان الشارع خالياً وكانوا قد سمعوا أثناء الامتحان أن هناك مظاهرات عارمة في الشوارع بسبب رفع الأســـعار . تمشى بعض الشئ بعيداً عن الكلية ليعثر على وسيلة مواصلات. وجد " بوكساً " سيارة شرطة . نزل منها من نزل وحملوه إلى السيارة .

التحريات تقول إنه شارك من قبل في مظاهرات الطلبة في يناير ١٩٧٢ التي احتلت ميدان التحريـــر . أنكـــر ذلـــك في التحقيقات واعترف لي شخصياً بأنه بالفعل كان ممن شاركوا .

ذهبت إلى حلوان بعدها بأيام ، اصطحبت الدكتورة سامية وصفاء إلى جامعة عين شمس ، كلية الطـــب . اســـتخرجت شهادة رسمية تؤكد حضور الدكتور سمير للامتحان بما يدحض محضر الضبط وساعته . ظنت سامية أن الأمر قد انتـــهى إلا أن القضية استغرقت فترة طويلة قبل الإفراج عنه علـــى ذمتـــها . عدت يومها إلى مترلي ومعي سامية . ظلت مقيمة في الروضـــه إلى أن خرج الدكتور سمير . صفاء تضحك بصوت عال علـــى حكاوي الدكتور سمير التي خرج بها مـــن الـــسجن وأسمعهـــا

لزوجته . جلسه الفرنساوي دون الزوجات والأزواج أصبح لها مذاق خاص . حرية في الحديث دون تحرج ونبش في ذكريات الماضي دون أن يجرح أحد منا اخاه وضحكات لا تنتهي من صفاء وكأنها تعوض الكلام بالضحك.

صفاء لا تمسك نفسها من الضحك عندما ذكرت سامية أن الدكتور سمير كان في الحجز مع مجموعة من الطلبة والعمال . زكي يهرب له السجائر بانتظام . السجائر كانت تشغله عن الطعام وجعلت له وضعاً مميزاً سواء في الحجز أو السجن . أطلقوا عليه اسم دكتور " روثمان " وتقربوا منه وتبسطوا معه باستثناء شخص واحد . عامل في شركة النصر للسيارات يقسم بصفة دائمة بأنه برىء وأنه ممسك بدليل براءته ويحاول الطلبة أن يجذبوا منه الدليل ليحولوه إلى متهم مثلهم . دليل براءته كيس من الورق يضمه إلى صدره . سمير لا يعرف ما في الكيس إلا أنه يطلب منهم ترك زميلهم وشأنه ولا يهدأون إلا بعد أن يوزع عليهم سجائر زكي الروثمان وبمجرد الانتهاء من تدخين السجائر يعاودون الكرة مع الزميل البرىء الذي كان يحاول الاحتماء بالدكتور سمير من مشاغبات الطلبة .

تشير صفاء بأصبعها حركة دائرية تطلب من الدكتورة سامية تكملة القصة ، إلا أنها تصر على أن تسمع القصة من صاحبها الدكتور روثمان عندما يحضر . أنظر إلى صفاء . أرى

أنها شفيت تماماً .. تتحرك .. تضحك .. تشارك في الحديث بحركات يدها .. لا ينقصها إلا النطق . دخلت إلى حجرتها . أحضرت مجموعة من الصور وخطاباً أرسلته لها ابنتها من برلين حيث تقيم هي وزوجها الدبلوماسي . أطلعتنا على الصور . شوارع واسعة نظيفة .. الخضرة في كل اركانها . فتحت الخطاب واشارت لي بأصبعها إلى جملة جاءت به ، تقول فيها ابنتها " لو أتيت إلى هنا لندمت على أنك ولدت وعشت في مصر " وتقلب شفتيها امتعاضاً من هذه الجملة ، إلا أنني لا أعلم إذا كانت تندم بالفعل على مولدها بمصر أو أنها غاضبة من إبنتها لذكر مثل هذه الجملة .

رسائل إبنتها وإبنها عوضت الجزء الناقص من حياتها . لقد شق الولد والبنت حياتهما وتركاها لحياتها وصمتها . عندما دق جرس الباب ، أشارت صفاء لأختها سامية بإشارة مضحكة .. وضعت أصبعي السبابه والوسطى على شفتيها وكأنها ممسكة بسيجارة. فتح الباب ، انفجر الجميع في الضحك . لقد وصل الدكتور روثمان ! علاقاتي بالدكتور سمير علاقة حب واحترام ، فهو يعلم أنني لم اتخل عنه في محنته . كنت أتابع الجلسات وأذهب إليها وقد شجعني في الحقيقة على ذلك وجود مستشار كان لديه إبنٌ ضمن المتهمين في أحداث قضية النيابة العامة رقم ١٨٤٤ لسنة ١٩٧٧ ورقم ١٩٧٧/٦٧ كلي وسط قسم عابدين والتي عُرفت فيما بعد بقضية رقم ١٠٠ وكان الدكتور

سمير ضمن المتهمين فيها . ورغم أن جلسات مترل الفرنساوي أصبحت أسبوعية إلا أن لقاءاتنا تبدأ بالاحضان والقــبلات . احتضن الدكتور سمير كلٍ من سالم وزكي وأنا وسـلم باليـد على السيدات وسأل عن سر الضحك والتـسيب في الجلـسة رغم وجودي على رأسها . تماسكت .. لم أضحك وإذا بصفاء تنفجر ضاحكة . تنظر إلى الدكتورة سامية وتضع أصبعها على شفتيها في إشارة للدكتور روثمان الذي وضع كيساً من الورق به فاكهة على الكنبة المجاورة .

قامت صفاء بنفسها لإعداد الـشاي ثم جلـست بجـوار الدكتور . ربتت على كتفه . صلى هو على النبي خـشية أن يحسدها ، فهو يراها " عال العــال " . لا يعـرف أن سـبب الاحتفاء به اليوم حكاوي زوجته سامية عنه وأحـداث ١٨ و ١٩ يناير . أشارت سامية إلى كيس الفاكهة دليل البراءة. كنت أنا قد سمعت القصة من قبل من الدكتور سمير وسمعت مئـات القصص من متابعتي لهذه القضية ، إلا أن سمـير شـاركهم في الضحك وخبط بظهر يده على جبهته متسائلاً عن من فتح هذا الموضوع بعد كل تلك السنوات .

سمير يتذكر القضية بكل تفاصيلها . يحفظ أسماء المتـهمين المائة وستة وسبعين في القضية رقم ١٠٠ لسنة ١٩٧٧ . يحفظ الاتهامات وبعض ما جاء في التحريـات والمعلومـات بحكـم التحقيقات التي استمرت معهم طويلاً ويتندر بـأن المتـزعمين

والمحركين لتلك الأحداث كانوا من العناصر الماركسية ومدعى الناصرية . لائحة الاتهام كانت طويلة إلا أنه يتوقف عند تهمة حمل صور جمال عبد الناصر والهتاف باسمه في المظاهرات .

كل هذه الأمور لا تهم ولا تثير صفاء . ترغب في الاستماع لقصة دليل البراءة . ضحك سمير ضحكة مجلجلة وقام واحتضن كيس الفاكهة الذي اتى به . الرجل كانت زوجته حاملا ،زوغ من المصنع ليشتري له كيلو برتقال وكيلو موز على أن يعود قبل انتهاء وردية العمل ليستقل سيارة الشركة إلى منزله . عاد وجد المصنع مغلقاً .. لا عمال ولا سيارات . قطار حلوان توقف عن الحركة . مشى إلى الكورنيش .. الشمس على وشك المغيب ولا حركة في الطريق . هبط الليل وهو في انتظار سيارة تقله إلى وسط البلد . رأى كشافات مضيئة قادمة . توقفت السيارة . ركب مع الراكبين .. في مصر عتيقة وأمام قسم شرطة مصر القديمة انزلوه ومن معه وواحدة من التهم كانت في انتظاره . يصرخ بأنه بريء وأنه خرج من المصنع لشراء فاكهة لزوجته الحامل وأن دليل براءته معه وظل الدليل معه إلا أن جفت البرتقالات وأصابع الموز ولم يسمعه أحد ولم يرحمه الطلبة بتندرهم عليه سواء في الحجز أو السجن وتم الإفراج عنه بعد أن وضعت زوجته حملها .

لم يتوقف سمير عن الحديث وكأن ينبوع ماء انفجر فجأة . قصص وأحاديث ومواقف جعلت صفاء لأول مرة توقف

بنفسها أغنية عبد الحليم حافظ . قصة الشاهدين اللذين شهدا ضد أغلب المتهمين . يحفظهما بالاسم ثلاثياً، محمد عز الـــدين عنتر ومحمد حاتم زهران .

نكات المتهمين وقفشات المحامين . زهران تلسكوب الذي رأى المتظاهرين في ميدان عبده باشا بالعباسية عندما خرجـــوا من كلية الهندسة ورأى طلبة جامعة القاهرة على كوبرى قصر النيل .

شاهد وصفه الحكم في النهاية بأنه " شاهد متلون لا يستقر على حال ولا يثبت على رأي ، لا يعرف حقيقـــة الـــشيوعية والشيعة " . أثنى الدكتور سمير على موقفي أثناء تلك الأزمة . أكد أنني لم اتخل عنه أو عن أخته سامية . خفت ضـــحكات صفاء عندما تحول الحديث إلى الجدية . سعدت بما قال عـــني كنت أرغب في توضيح الحقائق واتضحت ! . أنقذنا من هـــذا الحديث جرس الباب ، جارنا و صديقنا عبده ابن عم سيد عبد النعيم البقال جاء لزيارتنا و الجلوس معنا كما وعد سالم أخـــي و زكي مرات عديدة و لم يف بوعده. جاء عبده محملاً بهدايا و كراتين ، ساعده زكي في وضعها في منتصف الصالة .

عبده البقال

كنت أسعد الناس في الفرنساوي عندما دبّت الحركة من جديد في منزل الحاج محمد الدكرني . أعرف أن زكي مسمار يعيش وحده في المنزل، إلا أنه منزل بلا روح ... بلا حركة... لا تخرج منه أصوات مثل بقية بيوت المنطقة و لا تنبعث منه راحة طعام ... لا طفل يدخله و لا صبية تخرج منه ... جدران خاوية أعاد زكي طلاءها و جاء بالعمال لإصلاح المدخل و تغيير درجات السلم ، ظننت أن زكي يخطط للزواج أو ينوي بيع المنزل ... و سرعان ما عاد إليّ عقلي .كيف يفكر زكي في الزواج بعد أن فاته القطار ... مخي يروح و يجيء .. قطار الزواج لا يفوت الرجال . هناك من تزوج في المنطقة وهو أكبر سناً ، وزكي لم يكمل عامه الستين ، فهو من عمري . ربما سيعرض البيت للبيع . إستحالة فهو لا يستطيع .

الورثة كثيرون و حتى و إن اتفق جميعهم على بيع المنزل، فلا أظن أن أختهم الكبرى مديحة توافق على التفريط في رائحة

الأحباب . كانت تشير لي دائماً إلى المنزل قائلة " الباقي مـن ريحة الحبايب .. ريحة زمان و حلاوة زمان .. كنت أشـاغبها قائلاً ... قول للزمان إرجع يا زمان .. لم تكن بـيني و بينـها كلفة . تربينا سوياً و عشنا سوياً و رحل من رحل و بقيت أنا و هي في منطقة الفرنساوي، لا نفكر في مغادرتها .

منزلنا ملاصق لبيت الحاج محمد الذكرني .. ظهر البيت في ظهر البيت . كانا من طابق واحد ، و نحن صغار كنت أفضل دخول بيتنا من مدخل الحاج محمد الذكرني .. ثم أصـعد إلى السطح و أعبر إلى منزلنا و أنزل السلالم .. كان زكي يفعـل نفس الشيء . كنا زملاء في نفس الفصل .. سـت سـنوات قضيناها معاً في المدرسة الإبتدائية المطلة على شارع الكورنيش أنا وهو و سالم .. اللواء سالم .. طوال اليوم الدراسي كنـا لا نفترق في الفصل أو في حوش المدرسة . عندما يدق جـرس " المروح " نجري خارج المدرسة .. أظل أنا وزكي نتجـول في الحواري حتى يحين أذان المغرب قبل عودة الحاج محمد الذكرني من المدبغة ، سالم كان يجري إلى المنزل .. يكتب الواجـب و يلبي طلبات الحاجة أم سالم .

أول مرة شاهدت نوافذ منزل الحاج محمد الذكرني تفـتح بعد طلائها .. ظننت أنني سأشم رائحة طعامهم .. كان للطعام زمان رائحة .. تعرف منها ماذا أعدت الأمهات في البيوت ..

هنا رائحة ملوخية .. و هنالك رائحة عدس .. كانت الأنوف لا تخطأ رائحة " الزفر" . هنالك لحم على النار في هذا البيت أو رائحة طيور تفور في أوانيها . اليوم لا رائحة لطعام .. المناخير سدت أو أن الأطعمة فقدت روائحها . سألت زكـي مـاذا يفعل في البيت ، قال : ترميم .. البيت سيفتح من جديد لأبناء الحاج محمد الدكرين و أحفاده . قفزت من الفرحة كأن الأيام القديمة ستعود و يعود محمد الدكرين و أبي سيد عبد النعيم.

العلاقة بين الحاج محمد و أبي علاقة قديمة .. أبي كان أكبر سناً من الحاج محمد الدكرين إلا أنه كان سيتشيره في كل كبيرة وصغيرة .. كانت جلساهما تمتد في المحـل أحيانـاً إلى بعـد منتصف الليل. يجلسان سوياً بالساعات و ينضم إليهما أحيانـاً الحاج محمود مجاهد أبو سلامة زوج مديحة أخت زكي مسمار. الحاج محمد الدكرين يعود من المدبغة قبل صـلاة المغـرب .. يدخل بيته أولاً .. ثم يخرج قبيل صلاة العشاء ، يمر على أبي .. يتركني في المحل و يذهبان سوياً لصلاة العشاء في مسجد ساعي البحر ثم يعودان إلى المحل .

كان للحاج محمد الدكرين مقعداً خصصه له والـدي .. لا يجلس عليه إلا هو . جدول مضبوط بإستثناء يـوم واحـد في الأسبوع .. يغلق والدي المحل و يخرج هـو و الحـاج محمـد الدكرين و لا يعودان إلا متأخراً .. عرفت فيما بعـد أنهمـا يذهبان إلى السيدة نفيسة . الحضرة الإسبوعية .

الجدول يتغير مرة أخرى .. الخميس الأول من كل شهر .. يعودان إلى المحل بعد صلاة العشاء في مسجد ساعي البحـــر .. يطلب أبي مني أن أذهب إلى البيت و لا يدخل المترل إلا بعـــد الساعة الواحدة ليلاً أو ما يزيد .. علمت بالصدفة ســـر ليلـــة الخميس الأول من كل شهر.

يفتح المذياع على حفلة الست.. أم كلثوم .. كانا يُعــدّان للحفلة و يأتون بعشاء من منطقة الجيارة .. كفتـــة و مـــخ أو لحمة راس .. عندما كبرت .. و حتى بعدما تزوجت رفــضا إنضمامي إليهما في الإستماع لحفلة الست.

زكي كتوم بطبعه منذ كنا صغار .. لا يبوح بـــشيء و لا يشتكي من شئ و لم أعرف قصته إلا بعد أن كبرت .. حكى لي والدي القصة من " طقطق لسلامو عليكم" . حاول والدي أن يبرئ صديقه الحاج محمد الدكرني من موضوع أن يكون قد تزوج على ام سالم و أنجب زكي ثم انكر أبوته . محمد الدكرني يخشى الله و إن كان ولده لكتبه باسمه حتى و لو انتحـــرت أم سالم و ألقت بنفسها في النيل و راحت في داهية . من يخاف الله لا يخاف الناس .. هذه هي الحقيقة .. و إذا كـــان الحـــاج محمد الدكرني أوصى لزكي بجزء من المدبغة و المترل ، فالوصية لم يحرمها الله ، ساعتها عرفت سبب حزن زكـــي الـــذي لم يكاشفني به رغم العشرة الطويلة بيننا .. كان زكي الأقرب إليّ من جميع أبناء الحاج محمد الدكرني رغم محبتي لـــسالم ، محبـــة

استمرت حتى الآن . لم يفسدها إننا فشلنا فى التعليم ونجح هو وأصبح ضباطا ووصل إلى رتبة لواء .. العلاقة بيني و بين زكي أعمق .. امتدت و لم تنقطع بحكم الجوار المستمر .

رسبنا سوياً في الإبتدائية .. ساقنا الحاج محمد الدكرني كالأغنام نحن الثلاثة . زكي و أنا و سالم .. أدخل سالم البيت.. سلمه لأمه .. و جاء بي إلى المحل و سلمني لوالدي . تحدث معه حديثاً خافتاً لمدة طويلة و انا أنتظر خارج المحل .. كنت أظن أن هناك عقاباً للرسوب و أن هناك علقة .. إلا أنه بعد حديث الحاج محمد الدكرني ناداني أبي و أدخلني المحل و قال إن المدرسة ليست كل شيء و ليست نهاية المطاف . و من فشل في شيء ، ربما ينجح في غيره .. كلام هادئ .. كنت أتوقع أن ينتهي بعلقة ساخنة، ووقف أمامي و أظلمت الدنيا .. أجلسني على مقعد و فتح لي زجاجة قازوزة ..

اتذكر اسمها و لونها سينالكو صفراء .. أخبرني أنه من بداية ذلك اليوم المحل هو مصيري و مستقبلي و علي أن أعمل معه بصدق و أمانة و أن أحافظ على ماله الذي هو مالي بعد عمر طويل ووضع لي جدولاً .. الاستيقاظ مبكراً .. الساعة السابعة أشتري الجرنال و أفتح المحل و اكنس أمامه و أرش بعض الماء و أنتظر قدومه .. العمل حتى صلاة المغرب يتخللها فترة راحة للغداء .. أذهب إلى المترل أتغدى و أعود سريعاً إلى المحل و لي

يوم إجازة في الأسبوع .. أختاره بنفسي .. علمت ليلة زفافي من الحاج محمد الدكرني أنه هو الذي وضع هذا الجدول و أن حديثه الجانبي مع والدي بعد ظهور نتيجة الشهادة الإبتدائية كان بهذا الشأن و أنه سلمني لأبي و تسلم هو زكي و ألحقه بالعمل معه في المدبغة.

فرحت ، فأنا لم أكن أحب التعليم أو المدرسة و كذلك زكي .. إنتظرت زكي الذي كان يخرج مبكراً مع الحاج محمد الدكرني إلى المدبغة لأسأله عن يوم إجازته .. قال لي الجمعة .. طلبت من أبي أن تكون إجازتي يوم الجمعة .. وافق و أخبرني أن هناك جمعة واحدة في الشهر خارج الجدول .. جمعة واحدة في الشهر يذهب فيها إلى منطقة بين الصورين لشراء إحتياجات المحل من بقالة و تموين .. جبن و لانشون و بسطرمة و شاي و سكر و زيت .. كان يوم الجمعة هذا يوماً شاقاً .. نبدأ صباحاً، نأخذ القطار من محطة مار جرجس أو الملك الصالح حتى باب اللوق و منها إلى العتبة الخضراء . من هناك نمشي إلى بين الصورين في نهاية شارع الموسكي . أول جمعة كان فسحة.. أول مرة أنزل مصر .. كان أبي يعاملني بمودة شديدة.. كانت تعليمات الحاج محمد الدكرني . نذهب إلى بين الصورين إلى محل معين .. يطلب أبي طلباته .. يجلس مع صاحب المحل .. يشرب كوباً من الشاي و يعد الصبيان الطلبات و يتركها أبي في المحل و نمشي من بين الصورين إلى سيدنا الحسين لصلاة الجمعة.

هذا هو النصف الأول من يوم الجمعة .. بعد الصلاة صحبني أبي إلى مسمط .. سألني ماذا أريد أن آكل . ذكر لي الأنواع التي تقدم .. فتة و شربة و كوارع و لحمة راس و لسان و فشة و كرشة و ممبار .. قال لي من الممكن أن أطلب طبقاً مشكلاً فيه من كل هذه الأنواع .. أدمنت هذا الطلب حتى الآن . كان هو يتناول " كارعاً كاملاً " و طبق فتة و سلطانية شوربة ساخنة نار .. ثم نعود إلى محل بين الصورين مرة أخرى . نضع ما إشتريناه على عربة كارو نجلس عليها نتسامر .

يحدثني عن والده الذي لم أره . تدب العربة في شوارع مصرإلى أن تصل الفرنساوي قبل صلاة المغرب . أضع بعض البضائع على الأرفف و البعض الآخر أحمله إلى المترل لتخزينه .

صفائح جبنة بيضاء و صفيحة زيتون مخلل واحدة و أقراص ضخمة من الجبن الرومي .. لم نكن نشتري الجبن الرومي في كل مرة .. كنت أشتريها مرة كل أربعة أو خمسة أشهر .. إلا الها كانت علقة .. كل شيء سهل التخزين .. الجبنة البيضاء و الزيت السكر و خلافه .. أما الجبن الرومي ، فهي مشكلة . كان من ضمن مهامي بعد أن تعد أمي خلطة لينة من الفلفل الأحمر الحامي و الفلفل الأسود أن أدهن أقراص الجبن الرومي بها .. ثم أضع كل قرص في نصف جوال من الخيش النظيف

و تضع أقراص الجبنة أسفل : النملية " و نأخذ قرصاً واحداً من الجبن المخزن العتيق إلى المحل و يعلن أبي بسراعتي .. كنت لا أستطيع أن ألعب في هذا اليوم و أشعر أن قدماي لا يستطيعان حملي . أنادي على زكي يحضر إلى و معه سالم نجلس معاً على درجات مدخل المترل و نقضي بقية الليلة ، أحكي لهما ما رأيته في رحلة اليوم .

عندما كان يمر الحاج محمد الدكرني على المحل و قبل إلقاء التحية على والدي ، يسألني عن العمل و هل أستطيع أن أقف وحدي في المحل و أبيع للزبائن بقرش جبنة أو بقرش حلاوة و يطلب مني أن أقطع له بقرش حلاوة طحينية و يختبرني و يطلب أن تلف في ورقة و يضحك ، الضحكة التي ورثها زكي منه قائلاً "عفارم عليك" و ينظر إلى أبي قائلاً " اللي ما ينفعش في التعليم ينفع في حاجة تانية يا حاج .. لو الناس كلها إتعلمت هيخرب الكون يا أبو عبده ".

أيام الجمع الأخرى التي ليس فيها مشوار "بين الصورين" كنت أنا وزكي و أحياناً سالم نلعب طوال اليوم . لعبنا كل الألعاب التي كانت معروفة أيامنا بإستثناء الكرة الشراب حتى لا يشتكي منا أحد . الألعاب في حوارينا لها مواسم . موسم النحل و موسم البلّي و موسم الطائرات الورق . موسم لعصفور بعو و تريك تراك .. قطعة خشب مثل المسطرة لا تزيد عن أربعين سنتميتراً تضرب بها خشبة أصغر حوالي سبعة

سنتيمترات مدببة من الطرفين .. تضرب على الطرف فـيطير العصفور في الهواء لنضربه بالمسطرة و الفائز من يدفعه إلى أبعد مسافة .. ينتهي موسم العصفور بعو .. و يتم تخـزين أدوات اللعب لتظهر في الموسم الذي يليه . لعبنا كل شئ .. عنكب.. شد و أركب . السبع طوبات و عسكر و حرامية.

نزولي إلى مصر مع والدي إلى بين الصورين أعطاني الجـرأة على الخروج من منطقة الفرنساوي .. زكي دائمـاً معـي .. تعلمنا أن نجلس على الكورنيش عند كـوبري المناسـترلي ثم زحفنا إلى أثر النبي . اشترينا عيدان بوص و سنانير صيد سمك. زكي لا يستطيع أن يعود بالسمك إلى مترله ، كان يعطيني مـا يصطاده . أسلمه لأمي تقليه لنا أو تشويه و أدعو زكي لتناوله معي فوق السطح أو في مدخل المترل .

أثر النبي بعيدة بعض الشيء عن منطقة الفرنساوي .. بعيدة عن عيون أهل المنطقة .. تحت الكوبري كنا نجلس بالساعات . زكي مرزق من يومه، يصطاد أكثر مني دائماً . تعلمنا تـدخين السجائر .. كنا نشتري ثلاث سجائر فرط و لا نعلم كيـف علم الحاج محمد الدكرني و الحاج سيد عبد النعيم و إذا همـا يهبطان علينا أسفل كوبري أثـر الـنبي و نـضبط متلبـسين بالتدخين . كاد أبي الضخم أن يفتك بي لولا وجـود الحـاج محمد الدكرني معه .. كسرا بوص الصيد و سحبانا معهما إلى الفرنساوي مثل سحبة الرسوب في الإبتدائية و لم نعد نـذهب

إلى أثر النبي و حذرانا من التدخين ، و توعـــدانا بعلقـــة إن لم نكف عن لعب العيال .

كنا نعبر الكوبري إلى الروضـــة .. نمـــشي في شـــوارعها وندخن. ضبطنا مرة أخرى . ضربنا علقة و حبسنا في البيت لا خروج لي إلى المحل و لا ذهاب لزكي إلى المدبغة .. عرفنا فيما بعد أن صاحب البلاغ سالم .. ضابط من يومه !.

الأيام تمر و كل يوم أكتسب خبرات جديـــدة يـــضيفها لي أبي.. كنت أشتري له الجرنال صباحاً و أقرأ له مـــا أســـتطيع قرائته .. و تحولت رحلة بين الصورين إلى روتين . أضـــاف إليها أبي لمساته ربما بنصيحة جديدة للحاج محمد الدكرني .

كان يذهب معي .. يشتري و يصلي الجمعة و نتنـــاول الغداء في المسمط و نحمل البضاعة على العربة الكارو .. كـــان يتركني لأعود وحدي مع البضاعة و يركب هو القطار و بعـــد فترة كنت أذهب وحدي بقائمة الطلبات و أذهب إلى نفـــس المحل .. أحمل معي مصاريف الغداء و أجرة العربـــة الكـــارو. وعرفت فيما بعد ان صاحب محل بين الصورين يرسل محـــصلاً إلى أبي ثلاث مرات في الأسبوع لتقاضـــي جـــزءاً مـــن ثمـــن البضاعة.

في أقل من عامين أصبحت مهامي أكثر من فتح محل البقالة و الكنس أمامه و رش المياه . أصبح أبي يترك لي المحل نـــصف

اليوم .. يأتي إلى قبل موعد الغداء .. يـأمرني أن أذهـب إلى البيت لأتناول غدائي ثم أعود . وعندما تركني أذهب إلى بـين الصورين وحدي أصبح رفيقي من جديد زكي مسمار .. نفس الطريق .. نفس المشوار نفس الطلبات ثم العودة سـوياً علـى العربة الكارو إلى الفرنساوي . لم نكن نشعر بالوقت أو طول المسافة .. تعلمت من أبي شراء كل ما يمكن بيعه في محلنا . نعم محل بقالة صغير إلا أنك تجد فيه كل ما تبحث عنه .. كان أبي أحياناً يذهب إلى الأزهر لشراء إحتياجات المحل من العطـارة وفي أحيان أخرى كان يذهب إلى منطقة الخرنفش لشراء أشياء كنت أظنها بعيدة عن البقالة .. كان يشتري ورنـيش تلميـع أحذية و أربطة أحذية وحتى الآن المحل الذي ورثته يـدار بنفس الطريقة القديمة . الذهاب مع زكي إلى بـين الـصورين والعودة معاً على العربة الكارو ، أصبح مختلفـاً عـن رحلـة الذهاب مع أبي. تناولنا الغداء ذات مرة في المسمط وأخـبرت زكي أنه المحل المفضل لوالدي .. أكل معي على مـضض و في النهاية قال لي أن هناك أماكن أفضل من هذا المسمط وهو مثلي لم يترل مصر من قبل .. مصر كنا نطلقها على أي مكان أبعد من باب اللوق .. في الجمعة الثانية صحبني زكـي إلى محـل كشري .. طبق ضخم بقرش صاغ و كمالة .. طبـق أصـغر بتعريفة .

كانت الحياة جميلة .. لم يتغير بعد مضي هذه السنوات شئ سواء في المحل أو الحي . المحل كما هو أرفف حتى السقف على

جوانب حوائطه .. نفس ترتيب البضائع .. زجاجات الشربات أعلى الرفوف فالطلب عليها قليل .. في الأفـــراح .. أو عنـــد عودة الحجاج .. شوال السكر أسفل البنك و الشاي في درج في متناول اليد .. لم نعد نذهب إلى بين الصورين .. وزحفت بضائع جديدة إلى المحل . أتت إلينا .. عربات محملة بأطعمـــة جديدة .. شيبسي .. كراتين من الأشياء غير المغذيـــة إلا أن أطفال الحي ينهالون عليها .. تصلنا البضاعة حتى باب المحـــل والغريبة أن هذه الشركات الكبرى تعاملنا بنفس طريقة تـــاجر الجملة في بين الصورين .. تعطينا البضاعة و يمر المحصل كل يوم أو يومين ليتقاضى جزءاً من ثمنها . أغلق المحل الساعة العاشـــرة تماماً بالثانية و الدقيقة . نفس مواعيد والدي .. قبل أن أدخـــل منزلي ألقيت نظرة على منزل الحاج محمد الـــدكرني .. ليلـــة صيفية ليست بالحارة أو الرطبة نوافذ المنزل كلها مفتوحـــة .. ينبض منها الضوء و يخرج منها صوت عبد الحليم حافظ .. في رأي أبي " عبد الوهاب بوّظ جيل و عبد الحليم بوّظ الجيل اللي بعده" . تطرب أذني كلمات عبد الحليم وموسيقاه .. ناديـــت على زكي .. نزل مسرعاً جلسنا في مدخل البيت كمـــا كنـــا نفعل ونحن صغار. حكى لي قصة تجديد المنزل والأسباب الـــتي دفعته لذلك .. صفاء أخته الصغرى بعافية شوية .. و جـــاءت لتقيم في المنزل بجانب مديحة التي تقوم على خدمتها .

طلب مني أن أعد له طلباً أسبوعياً . جبنة ولانشون و بسطرمة و كرتونة بيض و كرتونة مياه معدنية وصندوق مياه غازية مشكل – بيبسي و سفن أب و ميرندا . على أن تصل الطلبية صباح كل خميس و يمر علّي يوم الجمعة لدفع حسابها .

أحسست أن المنطقة ستعود كما كانت بعد تجديد مترل الحاج محمد الذكرني . مرت أمام عيني أشباح و صور من الماضي البعيد .. خطوات قليلة و دخلت مترلي و أنا أفكر في حال المنطقة الذي تغير و الناس الذين ذهبوا و المنازل القديمة والعمارة الجديدة الوحيدة التي بناها محسن خطيب صفاء السابق. أشعر أن المنطقة تغيرت رغم أن يد الزمن فيها تجمدت. ما الذي تغير .. لا أعرف بالضبط .. المنازل كما هي.. المدخل إلى منطقتنا كما هو . على الناحية اليسرى أجزخانة الشمس و على اليمين محل ألبان فتوح .

عمر بعض المنازل و المحلات من أعمارنا . شهدنا بعضها أثناء البناء .. المنازل شاخت معنا .. جرى عليها الزمن مثلما جرى علينا . الحجر مثل الإنسان يشيخ و ينكمش . منطقتنا لم يدخلها أغراب و لم يأت إليها سكان جدد منذ طفولتنا لكن خرج منها الكثير من الناس . منهم من انتقل للإقامة في أماكن أنظف . المنيل أو الروضة أو المعادي . أبناء الفقراء و التعساء ذهبوا إلى اماكن أسوأ و حواري أضيق .. إلى منطقة دار

السلام وحواريها المعروفة باسم الصين الشعبية . هنالك من ذهب إلى دار البقاء في مقابر الإمام الشافعي وسيدي عمر و البساتين . رغم أن المنطقة مغلقة أمام الغرباء إلا أننا تحولنا إلى غرباء فيها .

أصبحت منطقة الفرنساوي أشد برودة عما كانت في الماضي . المنازل القريبة من بعضها و الناس الطيبة ذهبوا و لم يعد أحد يشعر بالدفء الذي كان . نعيش على بعض الذكريات و السيرة .. حتى الناس التي كانت تؤمن بأن " السيرة أطول من العمر " نفدت أعمارهم و بقيت ذكراهم . قضيت ليلتي أقلب في محطات الراديو الذي بجوار السرير على أمل أن أسمع مقطع لأغنية لأم كلثوم أو عبد الحليم ، إلا أن الراديو عاندني تلك الليلة.

أبحث عما يجذبني إلى الماضي .. إلى زمان ، ربما كان سبب فرحتي بعودة الحياة إلى منزل الحاج محمد الدكرني هو الحنين إلى زمن بنعومة البحر الذي كنا نجلس على ضفافه، زمن كانت المطالب فيه قليلة و الأماني واسعة . لم يعد لي مطلب في الدنيا و لم يعد لي أماني جديدة . أتمنى الستر. " استرنا دنيا و آخرة" جملة كان يتضرع بها الحاج محمد الدكرني و الحاج سيد عبد النعيم إلى الله و سترهما. كانت جنازتهما عنواناً للستر و خرج ورائهما كل سكان الفرنساوي و مصر عتيقة وخارطة أبو السعود . توفيا في أسبوعين متتاليين و صلى على نعشهما مئات

الشيوخ و الشباب وحتى الأطفال وحمل الناس نعش كل منهما في يوم لم يتوقف فيه المطر سيراً على الأقدام من الفرنساوي إلى مقابر الإمام الليثي و دُفنا في قبر واحد إشترك في شرائه وبنائه الثلاثة ، الحاج محمد الذكرني و الحاج محمود مجاهد و الحاج سيد عبد النعيم . اتفقوا فيما يبدوا على أن يكونوا جيران في الآخرة كما كانوا جيراناً في الدنيا.

ماذا حدث في هذه الدنيا ؟ .. إذا خرجت جنازة من الفرنساوي لا يسير ورائها إلا بضعة أشخاص و لا يصلي عليها سوى صف واحد من المصلين ، أغلبهم من كبار السن و لم يعد الأحياء يتحملون الموتى ، يلقون بالنعوش في سيارة نقل الموتى لتقلهم إلى المقابر . الدنيا تغيرت حولي و أنا لم أتغير .. المحل كما هو لم يجد عليه شئ ، استبدلت فقط راديو أبي بتلفزيون، حتى كرسي الحاج محمد الذكرني لم افكر في التفريط فيه . ظل في مكانه طوال هذه السنوات . نوافذ منزل الحاج محمد الذكرني التي فتحت بعد طول إغلاق ، فتحت على كل ذكريات الماضي بناسه و أحداثه و عودة أبناء محمد الذكرني إلى الحي جلبت معها تفاصيل الماضي البسيط وحلاوته.

الدكتورة سامية تركن سيارتها أحياناً أمام المحل ، تلقي بالتحية ثم تصعدإلى أختها صفاء ، المستشار شريف يتحدث معي بطريقة رسمية و يسألني عن الأولاد ثم يتجه مباشرة إلى منزل الذكرني . سالم : اللواء سالم هو الوحيد الذي يجلس معي أحياناً داخل المحل بالساعة و الساعتين . يجلس على كرسي

والده و يحكي عن ناس الحي الطيبين . دماغه دماغ ضابط بوليس .. يتذكر أسماء زملاء الدراسة في المرحلة الإبتدائية و بمجرد أن أصف له زميل يذكر اسمه ثلاثياً و يصف لي المترل الذي كان يسكن فيه و يشتكي أنه بدأ في نسيان بعض الأسماء. اللواء سالم لو إرتدى جلباباً لأصبح محمد الدكرني بالتمام و الكمال .. نفس الطول و الحجم و تقاطيع الوجه . الشئ الوحيد المختلف هو طريقة سيره . يسير وكأنه في طابور عسكري ، عندما أخبرته ذات يوم بذلك كأنني فتحت له جرحاً ؟ شعرت أن هذا اللواء الباشا ليس سعيداً على الإطلاق و ربما أنا عبده البقال أكثر منه رضاء و سعادة .

– كلنا ياعبده في طابور .. ماشين على فين ماحدش يعرف. ناس بتشيل ناس.

– الأعمار بيد الله يا باشا

– و نعم بالله.

ظننت في البداية أنه قد يكون حزيناً على أخته صفاء وعندما توالت الجلسات إكتشفت أنه حزين على نفسه أو على شي آخر لا أعلمه و لا يريد أن يشغلني به و رغم ذلك كانت سعادتي لا توصف بإضاءة مترل الحاج محمد الدكرني من جديد و الحركة التي دبت فيه و عودة سالم و زكي مسمار للجلوس معي و كأنني عدت بنفسي إلى المدرسة الإبتدائية و حواديت الصغار و إن كنا أحيانا نتحدث في قضايا الكبار. الصحة ومشاكلها و الخوف من غد لا نعلم ما ذا يحمل لنا . دنيا تفرق الناس دون ميعاد و تجمعهم دون أسباب و تثقل عليهم همومها دون داع!.

سلامة مجاهد

كل الكلمات التي تجري على لسان أفـراد الأسـرة هـي مفردات ابي محمود مجاهد، انتقلت بالعشرة والمحبـة إلى عائلـة محمد الذكرني وعادت إلينا مرة أخرى. كلمة "أخويا" و"أخي" و"على خيرة الله وعال العال" التي لا تفارق لسان اللواء سـالم أو المستشار شريف أوالحاج زكي هي كلمات أبي. كـان لا يتحدث عن الحاج محمد الذكرني إلا بأخويا حتى ظن الناس أنه أخوه، وعندما فكرت في الارتباط بمديحة، كـاد يطـير مـن الفرحة. أنا ابنه وسأتزوج ابنة أخيه. قال إنني وحيد ولـيس لي أخوة صبيان وسيصبح لي ثلاثة أخوة كما ستزيد أخواتي البنات ثلاث أخريات. النسب أيام زمان كان له طعـم مختلـف، لا مصلحة ولا طمع. البحث عن الأصل هو الأساس.

ليلة فرحي ظل محمد طه وأبو دراع يعيدان ويزيدان في أغنية على "الأصل دور" يقولان فيها" ياللي غـاوي النـسب روح

للبنت دار أبوها" وكأنهما يعلمان أنه سيأتي زمن لا يهتم فيه الناس بالأصل أو الأصول. أصل صفاء الطيب وطيبة الحاج محمد الذكري سينجيانها من أزمتها وأنا أرى صفاء تتحسن وستشفي باذن الله. بدأت تسترد عافيتها وتعود "الدموية" إلى وجهها. أحسست أنها في طريقها للشفاء الكامل عندما قامت بنفسها وأغلقت المسجل وأخرست صوت عبد الحليم حافظ. أغنية "حاول تفتكرني" كانت تصيبني بالصداع وكنت أطلب من مديحة أن تدير بدلا منها شرائط قرآن إلا أن صفاء كانت ترفض وبشدة وتثور لأتفه الأسباب إن لم يكن عبد الحليم على مقربة منها.

تخلصت صفاء من عبد الحليم أثناء جلسات أخوتها كانت تستمع إليهم وتسعد بهم. اكتشفت أن أسرتها حولها. نعم الزوج بعيد والإبن والإبنة تركاها إلا أنها لم تعد وحيدة. لم تعد تستجدي من أحد أن يتذكرها أو "يفتكرها".. الكل حولها والكل يتمنى شفاءها وخطابات ابنها وابنتها أخذت جزءاً كبيراً من اهتمامها. تقرأ الخطابات أكثر من مرة وتغلق على نفسها حجرتها وتظل تكتب لهم الردود. كانت تسعد بالصور الشخصية التي يرسلونها إليها وبدأت تمارس حياتها بشكل طبيعي. تخرج أحياناً مع اختها مديحة زوجتي للتسوق.

عادت لارتداء ملابسها الجميلة ولا تقابل أخوتها بملابس المترل كما كانت تفعل في أيامها الأولى. عادت إليها بعض الأشياء المفقودة. تأقلمت مع وضعها الجديد وكأنها أخذت عهداً على نفسها بأن تعيش حياتها رغم هروب الابن والإبنة والزوج.

كل ذلك بفضل أصلها الطيب وبركات الحاج محمد الدكرني الذي لم يفارق أبي ولم يفارقه أبي إلا عند وفاته. كانت العلاقة بينهما غريبة يصعب أن نجد لها مثيلاً هذه الأيام. الصبية والعمال في المدابغ الآن يغيرون من بعضهم البعض وكل منهم يحاول أن يكيد لزميله عند صاحب المدبغة ليتخلص منه ويبقى هو. كانت أيامهما مختلفة وحبهما لبعضهما لا يمكن وصفه. سالم ومديحة وشريف يعرفون عمق العلاقة، إلا أن صفاء كانت صغيرة وغير مدركة. كل ما تعرفه أن الحاج محمد الدكرني والحاج مجاهد زملاء مهنة واحدة وجيران. عندما اجتمع الأخوة الأبناء والبنات وجدتها فرصة لأحكي لهم عن علاقات زمان وناس زمان وأخلاق زمان. زكي ربما يكون الوحيد الذي يعلم كل أسرار علاقتهما لأنه سمع الكثير منهما كما سمعت أنا وسمعت مديحة.

أبي كان يحكي بفخر أنه ذهب إلى مترل أهل أمي لخطبتها مرتدياً جلباب الحاج الدكرني الصوف و"شاله" الحرير. الجلباب والشال الذي تزوج بهما الحاج محمد الدكرني قبله. استعارهما

منه وظلا يحكيان عن الجلباب والشال طوال عمرهما. عندما فتح الله عليهما وأصبح لكل واحد منهما مدبغة، فكرا في الحج. أبي اشترى مدبغته قبل الحاج محمد الدكرني بسنوات. سبب التأخير كانت أم سالم التي لم يسامحها ابداً على فعلتها. اشتروا مترل الفرنساوي وظل يعمل بالأجرة سنوات إلى أن استطاع إدخار المبلغ المطلوب. كان الحج بالنسبة لهما مشكلة. كيف يتركان أسرتيهما ويسافران معاً إلى الحجاز. فكر الحاج محمد الدكرني في تاجيل حجه لمدة عام، يسافر خلالها محمود مجاهد ويراعى هو الاسرتين إلى أن يعود. طلب منه الحاج مجاهد أن يسافر هو أولاً. اختلفا على المحبة. قررا أن يسافرا معاً والله هو الحافظ. الاختلاف بينهما كان على الحب.

كل منهما يحب لأخيه ما يحبه لنفسه. ناس زمان وأخلاق زمان.

ما لا أستطيع أن أقوله أمام سالم وشريف ومديحة هو خوف والدي الشديد من تدخلات أم سالم. كان يرى أن أمرأة أخرى غيرها لصنعت من الحاج محمد الدكرني مليونيراً. كانت عندما تشم أن معه نقوداً تبحث عن مائة طريقة لبعثرتها. هذه النقطة بالذات كانت مصدر قلق والدي عندما تزوجت مديحة. قال والحق يقال إن مديحة مثل أبيها وليست مثل أمها لكن يجب إبعاد أمها قدر المستطاع عن شئوننا وألا أسمح لها

بالتدخل في حياتنا. كان من وقت لأخر يسأل عن آخر طلبات مديحة. لم تكن لها طلبات لكنه كان يحاول أن يستكشف إذا كانت أمها تحاول أن تجعلها مثلها. مديحة شيء أخر. مديحة مثل الحاج محمد الدكرني تعمل على إسعاد من حولها.

الحاجة أم سالم مشكلتها مشكلة. طلبت أن تحج مثل قريبة لها. حاول الحاج محمد الدكرني أن يثنيها عن رغبتها أو يؤجل حجها لعدة سنوات يكون قد طور المدبغة بعض الشيء. أشعلت الحرائق. ورضخ لها في النهاية. عاش أبي ومات وهو يضع يده على قلبه خشية أن تصبح مديحة زوجتي مثل أمها. عندما استأجر الحاج محمد شقة المنيل وانتقلت أسرته إليها. كان يسأل مديحة من وراء ظهري عما إذا كانت ترغب في الاستمرار في الفرنساوي أو أنها تفكر في الانتقال إلى شقة أخرى في حي أخر مثل أمها. ردها الدائم عليه بأن "مفيش عاقل يسيب بيت ملك ويسكن بالإيجار" تطمئنه بعض الشيء، إلا أنه كان يطلب مني وباستمرار أن "أخلي بالي من مراتي".

مديحة لم تفكر في ترك المنطقة التي تربت فيها وعرفت ناسها، فهي تخاف من معرفة ناس جدد. كما أن إصرار الحاج محمد الدكرني على أن يبقى في الفرنساوي بعد استئجار شقة الروضة، جعلها تفضل أن تبقى بجواره بعد أن تخلت عنه الحاجة أم سالم وشغلت نفسها بحياتها الجديدة. مديحة مثل

صفاء لا ترغبان في الحركة والانتقال. الفرنساوي بالنسبة لهما هو الحياة. الفرنساوي يعني الحاج محمد الدكرني وزكي. يعني الحارة والناس الطيبة غير المتكلفة في طريقة كلامها أو لبسها. مديحة ارتبطت بأبيها وكانت صفاء ترغب في الزواج من محسن حتى تعود للفرنساوي مرة أخرى بعد انتقالها إلى الروضة. حبها للشخص والمكان سبب أزمتها.

الحاجة ام سالم كانت "في جرة وخرجت بره" على رأي الحاج محمود مجاهد. هناك من يموت في العيش "برة" وهناك من يموت إذا خرج من مائه. الناس أصناف وأنواع. ماتت صفاء عندما انتزعوها من الفرنساوي وعندما أجبروا محسن على ترك البلد كلها. الحياة في الروضة صدمتها وعندما جاءوا لها بعريس لم يفكر أحد في أغنية محمد طه "عن الأصل دور". زوجها الغني مع أمها سبب أخر لأزمتها. الغني لم يثمر ابناء يخشون على أهلهم ويخافون عليهم. كل واحد في شأنه. الولد لم يرب والإبنة كانت على "حل شعرها". الأب غائب وفلوسه هي الحاضرة. كل ما يرغبون فيه موجود وكل طلباتهم أوامر وعندما يطلب منهم شيئاً لا يستجيبون. اعتادوا على الطلب وعلى الآخرين الاستجابة لهم. لو كانت صفاء تزوجت محسن، ربما كان أبناؤها منه غير أبنائها من زوجها الحالي.

كل شيء قسمة ونصيب ولو عاشت الحاجة أم سالم إلى الآن وشاهدت وضع محسن الجديد لماتت مرة أخرى من الحسرة. محسن موظف الجمعية الاستهلاكية الذي عايرته بوظيفته وتشبثه بالفرنساوي. أصبح من كبار ملاك المنيل والروضة. أنا لا أشاهده إلا في الفجر عندما يترل للصلاة وبصحبته ثلاثة من أبنائه الكبار. شباب "زي الورد" وفي غاية الأدب. أخبار محسن عند عبده البقال. ما زال يمر من وقت لأخر عليه ويجلس معه بعض الوقت. عبده البقال يقول إن الله فتحها عليه من وسع. ويوسف المكوجي عندما يراه يدخل الفرنساوي بسيارته المرسيدس يتمتم بأن "الله يرزق من يشاء بغير حساب".

اشترى محسن عمارة في المنيل على البحر الصغير. عمارة خمسة أدوار في كل دور أربع شقق العمارة كلها مسكونة. تركها عدة سنوات ثم بنى عليها خمسة أدوار أخرى وعرض الشقق للتمليك. الشقة بمليون جنيه. عشرين مليون جنيه جمعهم من عمارة لم يدفع فيها حينذاك أكثر من مائتي ألف من الجنيهات، هدم مترل والده وأقام عليه البرج المواجه لمترل الحاج محمد الدكرني. يحكي عبده البقال عن مزرعة محسن في طريق مصر اسكندرية والتي يعمل فيها أولاده جميعاً. مئات من الأفدنة تنتج كل أنواع الفاكهة.

رفضته أم سالم ظناً منها أنه فقير أو عديم الحيلة. لم تفكر لحظة في الله سبحانه الذي يغير الأحوال. لو ظلت أم سالم على قيد الحياة حتى الآن لفكرت بطرقها الجهنمية في تطليق صفاء وتزويجها له مرة أخرى. عندما أرى أبناء محسن وارى ابن صفاء وابنتها، أعود وأفكر في الأصل الطيب وحسن التربية وأن الله إذا أراد أن يكرم أحداً يكرمه في أبنائه وماله وصحته.

عندما بني محسن عمارته في شارع ساعي البحر فكرت أن استأجر لديه أو اشتري منه شقتين لولديّ، الا أنني ترددت لأسباب كثيرة رغم علاقات الود التي بيننا. ظلت علاقتي به جيدة إلى أن سافر فجأة بعد فسخ خطوبة صفاء وكان يعلم أنني ومديحة زوجتي كنا ضد تصرفات الحاجة أم سالم. اختفى محسن سنوات ولم يظهر في شارع ساعي البحر إلا بعد أن اكتمل بناء العمارة. لم اسأله عن رحلته أو حياته ولم يفكر هو أن يسألني عن صفاء. جاء لدعوتنا لحفل زفاف ابنه الأكبر. كنت لا أرغب في الذهاب حتى لا يتطاير الخبر ويصل صفاء، إلا أن مديحة أصرت على الذهاب بحجة أنهم جيران قبل خطوبة صفاء وبعد فسخ الخطوبة.

أكدت عليها ألا تخبر صفاء أو أحداً من أخوتها. في الحفل وجدنا زكي وكل عائلات الشارع. مديحة كانت حريصة أن تشاهد زوجته المنقبة التي لم يشاهدها أحد. صعدت إليها في شقتها قبل الحفل حاملة معها ما تحمله نساؤنا في مثل هذه

المناسبات. خمس زجاجات شربات وخمسة كيلو سكر. سخرت منها بأنهم ليسوا في حاجة إلى الشربات أو السكر، فالفرح لن يتم في شارع ساعي البحر. الدعوة تقول إنه في فندق.. في أول طريق مصر الإسكندرية. قالت إنها تريد رؤية زوجة محسن. عادت من الزيارة لتقول إنها خفيفة الدم إلا أن أختها صفاء أجمل منها مائة مرة.

عمارة محسن الجديدة شجعتني أن أفكر في بناء دورين فوق منزلنا. شقة على مساحة دور لكل ولد. المشكلة في التراخيص ولابد من دفع المعلوم. المطلوب مبلغ كبير .. خمسون ألف جنيه. حاولت تخفيض المبلغ. عرض الوسيط حلاً وسطاً فالمسئول لن يتنازل عن المبلغ الذي حدده. ومن الممكن استخراج رخصة لبناء ثلاثة طوابق لا طابقين ويكون نصيبه شقة على "المحارة" رفضت السماح لـ "حرامي" أن يسكن في بيتي ..أدفع رشوة.. آه .. اسمح لمرتشي أن يعيش معي في منزلي.. لا. قررت البناء بلا رخصة. محاضر شرطة ومرافق وأشغال طريق وغيرها وما يُبني تأتي حملة من رئاسة الحي لتهدمه. الحل في الدفع. زاد المبلغ من خمسين إلى ستين ألف.. دفعت.

أنا مثل صفاء وأبنائي مثلي من الصعب عليهم الخروج من الفرنساوي والإقامة في أي مكان أخر. أحياناً أشعر أن المنطقة بمنازلها المتلاصقة توفر للناس حماية ودفء لا يشعرون به في مكان أخر وأحياناً أخرى أشعر أن هواء المنطقة يختلف عن أي

هواء أخر. هواء يرد الروح وعودة صفاء للمنطقة واسترداد عافيتها يؤكد ذلك. صفاء لم يعد يؤلمها سفر الأولاد. استقر بها الحال واستقر بهم، إلا أنها تشتاق لرؤية أختها زينب. نشتاق كلنا لرؤيتها. عشرون عاماً أو ما يزيد. لم تضع قدمها في الفرنساوي عادت إلى مصر وتضرب وعداً وراء وعد في التليفون أنها ستأتي للزيارة ولا تأتي. عندما يأتي ذكرها تشيح صفاء بيدها وكأنها تطلب منا أن نصرف نظر عن زينب إلا أننا ننتظر حضورها فجأة تتمنى أن تهبط علينا ذات جمعة.

زينب اكتفت بالمكالمات التليفونية. المكالمة تزيد عن ساعة، تعرف موعد لقائنا وبعد الغداء يرن التليفون وتظل السماعة تنتقل من يد إلى يد. تحدث سالم ثم زكي ثم شريف ثم تطلب صفاء. لا تزيد مكالماتها معها عدة ثوان. صفاء تسمع فقط وربما زينب تحاول الاطمئنان عليها وتسمعها بعض عبارات التشجيع، إلا أن صفاء سرعان ما تغير لونها وتترك السماعة لأختها مديحة لاستكمال الحديث. يبدو أن صفاء لا تسعدها كلمات زينب، إلا أنها تسعد بسماع قصص أختها مديحة عنها.

مديحة لها رأي في ابتعاد زينب عن الفرنساوي وعدم الحضور إلى منزل العائلة. زينب تخاف من الحسد والعين منذ أن كانت طفلة والآن مع تغير الظروف ربما تظن أنها هدفٌ لعين الحسود. هي الوحيدة من بنات محمد الذكري وأبنائه التي

أصبح لها ستة من الأبناء، أخرهم بنت في العاشرة من عمرها. لا تعلم الأسرة شيئاً عن أولادها الكبار وهــل تخرجــوا مــن الجامعة أم لا لكن مديحة تحسب تواريخ مــيلادهم بطريقتــها. تقول إن إبنها الأكبر كانت حامل فيه في فرح أخيها سالم وأن الثاني من عمر ابنها الأكبر لكنــها تــشغل نفــسها بنوعيــة الشهادات التي حصلوا عليها وهل بينهم أطباء أو غير ذلــك. تحكي عن زينب عندما كانت صغيرة كانت حريــصة كــل الحرص على أشيائها. "العيدية" التي تحصل عليهــا في العيــد الصغير تظل معها حتى العيد الكبير لا تنفق منها مليماً. كانت تخفي لعبها البسيطة. العروسة المصنوعة من القمــاش وتلعــب بلعب الأطفال الأخرى. كانت الوحيدة التي لا تضع حــذاءها تحت السرير. كانت تضعه في علبته الكرتونية. كانت تخفــي أقلامها ولا تعيرها لأحد وصفاء تسمع ولا تستطيع أن تكــتم صوت ضحكاتها.

تحكي مديحة عن زينب عندما حصلت في الابتدائية علــى مجموع خمسة وسبعين في المائة ولم تخبر أحد خــشية الحــسد. يشاركها في الحديث زكي.. يحكي عن نوادر زينــب وهــي صغيرة عندما ظلت تبحث في البيت عن شيء ولم تخبر أحــداً بهذا الشيء المفقود. تأتي من المدرسة وتقلب المنزل. تصعد فوق السطح.. تنزل تحت السلم تنتقل من حجرة إلى حجرة مثــل القطة التي فقدت أولادها ولا تريد أن تخبر أحداً عما تبحــث عنه. عندما سألها زكي انفجرت باكية. كان لديها كيس نقود

صغير اشتراه لها الحاج محمد الدكرني وضعت فيه التحويشة.. لا يتذكر زكي عدد القروش التي ذكرها.. حاولت أن تخفيه عن العيون وبدأت نقله من مكان لآخر. نسيت أخر مكان وضعته فيه. لم تكف عن البكاء إلا بعد أن أعطاها زكي عدداً من القروش تقترب من المبلغ المفقود وطلب منها أن تستعوض الله في الكيس.

نوادر زينب لم تنته وهي صبية وهي كبيرة وزكي يحكي عندما أخذ الحاج محمد الدكرني الأسرة كلها إلى استديو تصوير في الملك الصالح. صورة تذكارية للأسرة كلها. الأب والأم والأبناء والبنات. كانت الصورة التذكارية تلك عرفاً في الأيام "الخوالي". كانت الأسر تعلقها في مدخل الشقة أو المترل أو في حجرة الجلوس إذا كان لديهم حجرة للجلوس. عندما جاءت الصورة ورأتها زينب أخذت في البكاء والعويل هي الوحيدة في طرف الصورة وجزء من فستانها لم يظهر. تبكي لأن فستانها مقطوعٌ في الصورة! وتضحك صفاء وتضع يدها على فمها حتى لا يعلو صوتها.

الكل في الفرنساوي في خدمة صفاء والترفيه عنها وانتشالها من أزمتها، عندما حكيت عن قصة زواج زينب ثم توقفت فجأة خشية أن أخوض في الحاجة أم سالم. طلبت صفاء بإشارة من يدها أن استمر ولا أتوقف حتى سالم وشريف طلبا أن أحكي القصة حتى يسمعها الشباب لعل وعسى يفهمون كيف كانت تسير الدنيا وكيف كانت تؤخذ الأمور. صفاء أشارت

بيدها لأستمر في قص القصة وأمسكت بكوب لتخبرنا أن قصة الزواج تلك تحتاج "دور شاي". دخلت المطبخ وخرجت وطلبت من مديحة متابعة الشاي على النار. لم تعد تجد غضاضة في استخدام يدها مثل الخرس. تعودت على وضعها الجديد.

عريس زينب بالمناسبة جاء به زكي و لم يرغب في أن يعلن ذلك حتى لا يظن أحد أنه من أصدقائه الحشاشين. وينفجر زكي ضاحكا ويطلب من الله أن يسامحني. عريس الصدفة أو عريس الغفلة شاب من الشرقية طويل وعريض جاء لزيارة قريب له يعمل في مدبغة الحاج محمد الدكرني. خريج جامعة الأزهر ويعمل مدرساً في السعودية. رحب به زكي وقدم له واجب الضيافة وتركه مع قريبة ثم عاد ليجلس معهما. الشاب الشرقاوي في أجازة انتهى منها شهران وباقي له أسبوعا واحد ليعود مرة أخرى إلى السعودية ومن الممكن أن يزيد عليها أسبوعا أخراً. قضى الشهرين في البحث عن عروس. طاف به الأهل والأصدقاء على كل المنازل التي بها بنات في سن الزواج و لم يعثر على عروس مناسبة. هنا تدخل زكي في الحديث عارضاً أن لديه العروس المناسبة.

إنها أخته زينب جامعية وعليه أن يذهب إلى منزلها ليقابل أحد أخويها سالم أو شريف وأعطاه رقم التليفون وأوصاه بألا يذكر أنه واسطة الخير إلى أن يتم الموضوع. أتصل بشريف

وحدد موعداً في اليوم التالي. شاهد زينب وعاد لزكي يخــبره بالموافقة وهو في انتظار موافقتهم. وافق سالم والــذي كـــان لحسن حظ العريس في أجازة بالقاهرة. وذهب للاتفاق وقراءة الفاتحة ومعه أسرته.

أمامه أسبوع واحد. الشبكة وعقد القران في يوم. استخراج جواز سفر للعروس في اليوم التالي. اليوم الذي يليه تزف إليه في بلدته الإبراهيمية بالشرقية. بقية الأيام .. انتظار تأشيرة سفرها ثم اصطحابها معه إلى السعودية. لا شروط للعريس.. سيأخذها بحقيبة ملابسها ويلقي زكي بنكته "إذا لم يكن لــديها حقيبــة كان على استعداد لشراء واحدة لها".أم سالم تطلــب فرحــاً وحفلة. بمكر الشرقاوية حاول تسوية الأمور. الاكتفاء بقــراءة الفاتحة في الأسبوع المتبقي وانتظار أجازة العام المقبــل لإتمــام الزواج. عريس في اليد أفضل من عشرة في الأجــازة المقبلــة. زينب دفعتهم كلهم للموافقة وانتهت قصة زواجها في يوم.

مديحة تعلق أن زينب "ناصحة من يومها" وزكــي يوعــد الحاضرين بأن زينب ستكون وسطهم ومعهم يــوم الجمعــة القادم. أمسك بالتليفون وبدأ يدير رقماً فيما يبدو أنــه رقــم زينب. كلام مجاملة رقيق وسلامات وأشواق. محدثــه علــى الطرف الأخر زوج زينب. دعاه للحضور إلى الفرنساوي يوم الجمعة لحضور حفل عيد ميلاده.. نظر الأخــوة إلى بعــضهم

البعض. فلا أحد يعرف موعد ميلاد زكي.. استمر في الحديث.. الأسرة كلها في اشتياق لرؤية زينب ورؤية الأولاد.. الجمعة المقبل بعد الصلاة عصراً. زكي لا يحب أن يسخر منه أحد لكنه لا يتوانى عن السخرية من نفسه. نظر إلى إخوته.. عيد ميلادي الجمعة المقبل.. عيد ميلاد زكي أبو السعود الجارحي المكتوب في بطاقتي الشخصية وفي شهادة الميلاد التي استخرجها المرحوم الحاج محمد الذكرني.. لم يعلق أحد.

يوم جمعة جديد يطل على الفرنساوي. الجو ربيع إلا أنه لا يخلو من بعض الأتربة. الأسرة تتوافد على المنزل والطباخ العجوز يعمل بهمة ونشاط وتساعده مديحة وصفاء.. زكي لا يهرج، يرغب في عيد ميلاد حقيقي وهو الذي لم يحتفل طوال عمره بأي عيد من الأعياد. بعد الصلاة الكل في انتظار زينب. الطعام جاهز على المائدة. سالم وزوجته وابن واحد. شريف وولداه حضروا. ابن لي واحد واعتذر الثاني .. زكي لم يصعد إلى الشقة.. يقف أمام المنزل في انتظار زينب وزوجها وأولادها. جلبة "وهيصة" على السلم أثناء صعود زكي مع أخته زينب وزوجها واثنين من أبنائها والبنت الصغيرة.

أحضان وقبلات ودموع. نحيب مسموع الصوت وبكاء حقيقي كأن هناك مأتماً. وقفنا جميعاً لاستقبال الضيوف. سالم وشريف تماسكاً وهما يحتضنان أختهما بعد طول غياب. زينب

تبكي بحرقة. صفاء في حالة ذهول. تنظر إلى أختـــها زينـــب تحاول تفحصها. زينب أصبحت "الخالق النـــاطق" أمهـــا.. أم سالم. نفس تكويرة الجسم. نفس الوجه الجامد إلاّ أن الدموع بللت خديها. زوجها لم يستطع الاستمرار في الوقوف. جلس على أول مقعد قابله بعد أن احتضن سالم وشريف واحتضني. لم يكن هو الشاب الذي عرفته أول مرة.٬ رجل في شتاء العمر، يلبس جلباباً صوفياً غالياً وأصبح من أصحاب اللحي. موضـــة العودة من السعوديـــة الآن.. جلباب ولحية. جذهم زكي إلى المائدة، طلب منهم الحديث فيما بعد، فقد طـــال انتظـــارهم وتسرب إليه الشك في أهم قد يخلفون وعدهم في الحضور كما حدث من قبل.

سيول من العتاب تجري بين مديحة وزينب علـــى ابتعادهـــا وعلمها بمشكلة صفاء وعدم حضورها لزيارتها. صفاء تكتفـــي بنقل نظراتها بين إخوتها. تفر الدموع من عينيها مـــن وقـــت لأخر. زكي يطلب تأجيل العتاب. زينب تقسم بالغالي المرحوم محمد الدكرني بأن ما منعها مـــن الحـــضور مـــشاكل الأولاد وتحكي عن مشاكل زوجها الصحية. منذ أن قدم من السعودية وهو لا يخرج من المترل إلا لزيارة الأطباء. مرض السكر تسلل إليه بالإضافة إلى حزمة أخرى من الأمراض. ســـالم وشـــريف يشجعانه ويخففان عنه. يؤكدان أن السكر ليس بمرض وعلـــى الإنسان أن يتعامل معه. اختلس نظرة إليه. ليس هو الـــشاب الذي عرفته.. الطويل العريض الضخم. لون وجهه تغلب عليه

الزرقة ومن يراه يظنه أكبر الجالسين سناً رغم أن سالم يكبره بعدة أعوام.

بنت زينب لا تستقر على مقعد تتحرك من مكان لآخر تسأل أمها وبصوت مرتفع عن أسماء خالتها وأخوالها، تسأل عن صفاء ولماذا لا تتكلم. تسأل عن اسم صاحب البيت. يداعبها زكي وتحتضنها صفاء. البنت تشبه خالتها سامية تماماً عندما كانت في مثل عمرها. شعر ناعم وضفيرة طويلة ووجه دائري جميل. مديحة تعرفها بأبناء خالتها وأبناء أخوالها. البنت تبدو أكثر الحاضرين فرحة بالجلسة. انتهى الطعام ورفعت الأطباق الفارغة طلب زكي إحضار التورتة للاحتفال بعيد ميلاده. البنت تتعجب من عيد ميلاد منتصف اليوم. تقول أن الشمع يطفأ بعد إطفاء الأنوار واليوم نهار. زكي لا يكترث بتعليقاتها. يؤكد أنه ولد في الظهيرة ويجب أن يكون عيد ميلاده بعد الظهر ويداعبها. نظراته الحانية تجاهها تعكس حبه الشديد للأطفال.

تورتة عليها ستة من الشموع ويبدأ التعليق عن عمر زكي الحقيقي ومحاولته الكذب على الزمن بصباغة شعره. مديحة لم ترحمه. زينب التي تخلصت من "وصلة" البكاء والشكوى تحولت للهجوم عليه. الهجوم بحب. ست شمعات..

بكل شمعة بعشر سنوات. زكي لا يبالي بالهجوم. يؤكد أنه أفضلهم صحة ولم يعان بعد من متاعب الشيخوخة. الشيخوخة التي أكلت عظامهم جميعاً. سعدت صفاء بقدرة زكي على رد الهجوم. أوضح زكي أن الشمعات الست، هم عدد أبناء وبنات الحاج محمد الدكرني الذي يعيش الكل في خيره.. صفقت صفاء فرحاً بما قال.. سألهم هل سيطول الحديث ولا نقطع التورتة ولا نأكلها وتأخذها مديحة معها في نهاية اليوم؟ قام ليشغل التسجيل. الشريط الموجود شريط عبد الحليم والأغنية "حاول تفتكرني".

•

عبد الحليم يصرخ بأعلى صوته "تعالي.. تعالي.. خلي الشمس مع ابتسامتها تطلع وتنور دنيتنا.. ليه نقول إن الفراق مكتوب علينا والحياة قدمنا.. ليه نسلم نفسنا لليأس ونقول انظلمنا" .. ناولته مديحة سكيناً ليقطع التورتة بعد إطفاء الشموع. أنهوا مراسم عيد الميلاد، الجلبة التي تحدثها بنت زينب لا تتوقف وأبوها ينظر اليها شذراً .. أحاديث جانبية. كل يحدث من بجانبه .. تتسلل صفاء إلى المسجل وتخرس بيدها صوت عبد الحليم حافظ. وقفت في منتصف الصالة.. نطقت كلمة.. وتقدمت بهدوء شديد الى اخيها سالم ..هزت كتفه بثقة لم نعهدها فيها ..نقلت نظراتها الى كل واحد منا

..لحظات كأنها دهر ..الكل وقف على قدميه ..الكل في حالة ذهول ! أعادت الكلمة مرة أخرى ..

طلقوني !

تمت بحمد الله

مارس ٢٠٠٨

